روايات الهلال

بوابات الرحيل

بكري عبد الحميد

S378

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ المعتبة.
القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
. تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج.م.ع.
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٣ Telex
فاكس: FAX: ٣٦٢٥٤٦٩

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة -
لبنان ٨٠٠٠ ليرة -
السعودية ١٢ ريالا-
البحرين ١,٢ دينار-
قطر ١٢ ريالا -
الإمارات ١٢ درهما -
اليمن ٥٠٠ ريال -
فلسطين ٢دولار

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات
قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وأسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين

باكين

الكتاب: بوابات الرحيل
المؤلف: بكرى عبدالحميد
التصنيف: رواية
الناشر: روايات الهلال - دار الهلال
رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢٨٠٤٧
الترقيم الدولى: 978-977-07-1742-4

بوابات الرحيل
رواية
بكرى عبدالحميد

الظلام يضغط على الحواس، فيجعل كل شيء غامضاً، الظلام أب كبير يعطف على الحزانى، يمد راحته إلى الرؤوس، يمسح عنها تعبها، حزنها، ويحفظ الأسرار، الأسرار الصغيرة التى لا تعنى أكثر من اثنين.

عبدالرحمن منيف
«قصة حب مجوسية»

الإهداء

إليها فى ملكوتها.. وإلىّ فى غيابي
إلى مريم
التى لم أجدها..
ولم تجدنى

لحظات ضائعة

حاشيـة :

بين لونين: أستقبل الأصدقاء
الذين يرون سريرى قبراً
وحياتى دهراً
وأرى فى العيون العميقة
لون الحقيقة
لون تراب الوطن

« أمل دنقل »

١

لا الشمس ينبغى لها أن تطلع، ولا الليل أن ينجلى، ولا لعذاباتى نهاية، الضوء الأصفر الشاحب يطبق على الأنفاس، والملح ينشع على جدران العنبر، وعلى قلبى. أشعر بالعطش، وبالموت، الموت.. ياه أشم أنفاسه، إنه حولى، معى دائماً، يرقد معى على السرير، ينظر إلىّ من المرآه، يطل من عيون أصدقائى الحزانى، لكنه لا يجىء، لا يريدنى أن أستريح، هل قلت أنى أشعر بالعطش، نعم هذا شعور بديهى لمن هم فى حالتى، عندما يبدأ النزيف الداخلى يمنع عنى الطبيب كل شئ، حتى الماء، يا رب.. رحماك.

تبتسم فوزية دائماً فى وجهى وهى تغرس الإبرة فى وريدى الضعيف، يالابتسامتك القاتلة يا فوزية. إنها تشبه هذه الجدران التى تحيط بى كسجن لا فرار منه، سجن غرفتى، وسجن المرض الذى يفتك بى، وأخيراً.. سجن ابتسامتك يا فوزية، أين المفر أين المفر؟

لا أجد طريقاً غير هذه الابتسامة التى تعود بى أعواماً للوراء.. اليوم أحسست للمرة الأولى بأعراض المرض، لا أستطيع النهوض من فراشى، دوار شديد، الأرض تدور بى، الجدران تضربنى فى رأسى، جدار بعد آخر، فراش لا يستقر، ما هذا ؟ شعور غريب، مزيج من الخوف والألم، هو موت بطىء، نعم.. لا بد أنه الموت أحاول الوقوف على قدمى، قدماى لا تستطيعان حملى، أقع من جديد على أرض تتقاذفها الأمواج، أروح فى غيبوبة طويلة، لا أشعر بنفسى إلا وأنا ملقى على الأرض ولم يشعر بى أحد، أرفع رأسى، فيعود الدوار من جديد، أعلم أننى لن استطيع أن أقف، ولكن لا بد أن أخرج من غرفتى حتى يشعر بى من فى البيت، النجدة، أغيثونى أرجوكم، صوتى داخلى، لا تخرج أى صرخات ولا استغاثات قررت أن أزحف على الأرض حتى أصل إلى الباب، كم كان الزحف صعباً كالمشى تماماً، لكننى وصلت، أخيراً وصلت إلى الباب، فتحته بكل ما ملكت من قوة:

– الحقونى.

خرجت واهية ضعيفة ميتة على شفاه تحتضر:

– أمى..

خرج صوتى ضعيفاً مرة أخرى، خرج باكياً.. حاسراً، يبحث عن طريق فى متاهة السقوط، إلا أن أمى سمعته، بأذنها.. ربما، بقلبها.. ربما أيضاً، المهم أنها سمعتنى، المهم أنه هناك أحد، أحد ينتشلنى من هذا الضياع، من هذا الموت من هذا السقوط المدوّى الذى يمارسنى، أمى.. التى هرعت إلىّ فى فزع ملأ حدقتى عينيها، وملأ عينىّ بضباب كثيف.

٢

فتح عينيه

سمعت الكلمة بصوت أمى المتهدج الملوء بالأمل فى عودتى للحياة، بدأ الضباب يتلاشى رويداً رويداً، أحاول أن أفتح عينىّ، أنجح فى المحاولة، لا أرى شيئاً فى البداية سوى رؤوس بلا ملامح، تبدأ الملامح فى التشكل أمامى تدريجياً لأرى أبى وأمى المنحنية على السرير، وممرضتين تضبطان عمل أجهزة المحلول والدم اللذين يتسربان إلى جسدى ببطء عبر أنابيب طويلة تخترق أوردتى من الساعدين، تتسلل ابتسامة إحداهما فى عذوبة وهى تهمس:

ـ حمداً لله على السلامة.

اقترب منى أبى، لم يتكلم، قرأت فى عينيه القلق والخوف والرجاء، أسرعت يده وهى تنقل حبات مسبحته التى علا صوتها، لكنى كنت أسمع دقات قلبه أعلى، قلبه ينتفض بين ضلوعه، وترتعش جفونه وهى تخبئ فى جنباتها دمعة تعاند إرادته وتهفو إلى السقوط، فصنعت بريقاً يلمع بخجل، رباه.. لا تجعلنى أرى دموع أبى، لا تبك أيها الرجل العظيم، دع البكاء لنا.. أرجوك.. دع البكاء، تقبلنى أمى برفق وتمسح خدها بظهر كفى المستكين بجانبى فأطمئنها:

ـ أنا بخير.

تناهى إلى سمعى صوت حامد متصنعاً البهجة:

ـ دائماً بخير، رغم أنف المرض.

ابتسمت بصعوبة، دون أن ألتفت إليه، يكفينى وجوده، يكفينى إحساسى أنه بجانبى شعرت بكثير من الأمان لقربه، ربما لقربنا الأبدى، أو لصوته الصادق.. الدائم الصدق، رغم الدوار الشديد الذى يكتنفنى، و دخول الأطباء وخروجهم، و تناوب الممرضات علىَّ و الإبر التى تنغرس فى لحمى بوحشية قاتلة، إلا أننى شعرت أننى ما زلت قادراً على الحياة.

ـ ربما يتوقف النزيف خلال أيام.

قال الدكتور باسيلى، الطبيب المشرف على حالتى، وانصرف وبقيت وحدى

رهين الليل الذى يطبق على عقلى. امتلأت الحجرة بالأهل والأصدقاء والأحبة، امتلأت الحجرة بأبى وأمى، امتلأت الحجرة بحامد، الذى نشر مرحَه فى أرجائها، لكنى بقيت وحدى، رهين وساوسى وقلقى وخوفى من الغد، الغد.. ياه، ربما تشرق الشمس ثانية، وربما.. نعم.. ربما، يفتح الليل فكه كوحش مفترس، وأنا أضيع فى غياهب الغابة المجهولة، ترتعش النجوم وينطفئ القمر، وتهتز الأرض من تحتى، وتدور السماء بجنون، وتنتفض الأيام فى ذعر، اقتربت المرضة بهدوء:

- أتريد شيئاً ؟

اغتصبت ابتسامتى المتثاقلة وسألتها:

- ما اسمك ؟

٣

لم تكن سماح هى المرضة الوحيدة التى ترعانى، إلا أنها كانت الأقرب لى منهن جميعاً، فقد كانت تشملنى بجمال ابتسامتها الأخاذة، وتحتضننى بعينيها السوداوين، قبل أن تريح جسدى النحيل بعقاقيرها التى تأتى بها ثلاث مرات كل يوم، لا.. ليس هذا هو السبب الذى جعلنى أرتاح لسماح، وأجعلها الأقرب إلىَّ، إنه ما قاله لى حامد ذات مساء:

ـ تشبهها، أليس كذلك ؟

لقد رأى حامد بعينيه ما رآه قلبى، وقال لى مالم أستطع أن أقوله لنفسى، نعم يا حامد، هى لا تشبهها فحسب، الأمر لا ينتهى عند الشبه، إنها هى، كدت أقسم عندما رأيتها فى المرة الأولى أنها هى، تركت مدرجات الجامعة ومحاضرات الأدب، وهوامش الشعر الجاهلى، ارتدت ثوب ملاك، واحتضنت حبها، وطارت بأجنحة الشوق حتى وصلت إلى حافة السرير، لتقتل المرض، وتنزع عنى الألم، وتفتح أبواب الحياه التى أوصدت فى وجهى، كما كانت تفعل دائماً، يبدو أننى أطلت النظر، فانتبهت سماح وهى تثبت جهاز الحقن فى ذراعى:

– (بتشبِّه)؟

قالت وهى تبتسم، فأجبتها دون أن أشعر:

– عيناك جميلتان.

انصرفت سماح مغتبطة وهى لا تدرى أنى إنما أخاطبها التى هناك، ولم تأت حتى الآن، بينما عينا حامد تتبعان سماح وهى تغادر الغرفة، انتفض من مكانه ووثب جالساً بجوارى وسألنى وهو يسلط نحوى عينيه:

– ما رأيك؟

قلت دون أن أفهم:

– فيم ؟

– فى سماح.

أشحت بوجهى دون أن أجيب، فأكمل:

ـ على أية حال، ستأتى الليلة ونرى.

تركنى قبل أن أتكلم، أسرع مغادراً الحجرة ليتسكع قليلاً ـ كما يحلو له أن يقول ـ ليتسكع فى طرقات المستشفى، لعله يعثر على «حاجة حلوة»، عُد يا حامد، لا تتركنى وحدى، وكأنه سمع ندائى الخفى الذى لم أتفوه به، فعاد حامد مطلاً برأسه فقط من خلال الباب وقال:

ـ هل قلتَ شيئاً ؟

سألت بلهفة وأنا أعلم بالجواب:

ـ من التى ستأتى ؟

ـ ومن غيرها.. مريم .

٤

لم يكن الليل كعهدى به ـ كئيباً.. موحشاً، يملأ جدران القلب بالأحزان، وينسج خيوطاً عنكبوتية كريهة أمام العينين ـ بل كان ليلاً مبهجاً، تراقص فيه ضوء الغرفة الباهت، وابتعدت الجدران عن بعضها لتشمل الكون كله، وتلاشى الدوار الذى كنت أشعر به، وجلست سعيداً على فراشى الفقير، فى انتظار الزيارة المرتقبة، والزائرة التى أحن لرؤيتها، وأشتاق لسماع صوتها، مريم. مريم.. أيتها النهار المشرق، والصباح الملئ بالأغنيات، الضوء المنسكب فى فؤادى، والطريق الوحيد الذى أسلكه دون دليل سوى عينيك السوداوين، مريم.. أيتها القادمة من البعيد، إلى العاشق المنتظِر، ها أنذا فى انتظارك كما أول يوم خطت فيه قدماى عبر بوابة الجامعة، نحو عالم مجهول غريب أنظر مشدوهاً إلى البنايات الكثيرة والكبيرة، أقف حائراً خلف بوابة الأمن، وتزيغ عيناى فى المكان، أنظر إلى حامد أستنصره، فأجده غارقاً فى رهبته، إلى أين، وأى مبنى نقصد من كل هذه البنايات، جاء الصوت من خلفنا رقيقاً.. هادئاً:

ـ لو سمحت.. مبنى كلية الآداب

أشار لها الضابط الجالس على مقعده مسترخياً دون أن يتكلم، سرت خلفها مسحوراً بصوتها، وجمالها، ومشيتها الغزلانية القاتلة، جذبنى حامد من يدى متسائلاً:

ـ إلى أين ؟

نظرت إليه فى ضيق:

ـ إلى مبنى الكلية.

ـ وأنا

ـ اذهب إلى كليتك.

ـ أين هى؟

ـ لا أعرف.

وأسرعت، إلا أنه استوقفنى ثانية:

- كيف أراك؟

- فى الكافيتريا.

- أين هى ؟

- لست أدرى يا حامد.. لست أدرى.

وانطلقت خلفها، لا أرى شيئاً حولى، اختفت البنايات العملاقة، واختفت أسوار الجامعة وحرسها، اختفى طلابها وطالباتها، اختفت الشوارع وأعمدة الإضاءة والأرصفة، ماتت الخطوات عدا خطواتها، لم أكن أمشى على قدمى، بل كنت أسير بقلبى، بعد أن غاب عقلى عن الوجود.. دَخَلَت إلى المبنى بخطوات واثقة، دخلتُ خلفها، مخلفاً ورائى أزمنة لا أريد أن أذكرها، جلست فى أحد الصفوف، وجدت نفسى أجلس بجوارها، وأضع.. وتضيع إرادتى وقوتى.

التفتت إلىّ باسمة وقالت:

- صباح الخير.. أنا مريم.

***

- مساء الخير.

كان الصوت، نفسه والرياحين التى تضرب الهواء، ونفس الوجه الشمس التى تشرق ليل نهار، إنها هى مريم مرة أخرى، تزورنى فى المستشفى، أشعر أننى تعافيت، إننى الآن فى كامل صحتى، وكامل سعادتى.

تقدمت الابتسامة الحلوة نحو فراشى، وجلست مثل ريم فى مخدع راحته، سلمتنى كفها، كحمامة ترقد فى أمان فى كفى، ورحت أتأمل عينيها، وأرى نفسى حبيساً خلف قضبان رموشها، سعيداً وأنا أرقد فى زنزانة العيون السود

- سلامتك.

- سلمت من كل شر.

تحدثنا كثيراً ويدها لم تغادر يدى، وحديثها العذب، الآن العصافير تغنى فى فمها، موسيقى الفطرة تعود وتتشكل من جديد، ياه.. تحدثى يا مريم، لا تصمتى.. أبداً، لا أريد أن أُحرَم من هذا الصوت، ولا من هذا الوجه ولا من هذه الابتسامة

التى تغرى الملائكة، وتغيظ الشياطين، لا أريد أحداً الآن، لا أريد هذا العالم، فأنت العالم، أنت مركز الكون بينما تدور الأفلاك من حولك، دعونى وحدى مع هذه السعادة المفرطة.

اقتحمنا حامد كالغيمة التى تسد عين الشمس فخيّم الظلام:

- أهلاً مريم.

- أهلاً حامد.

ثم غمز لى بعينه وقال:

- أنا آسف.. موعد الزيارة انتهى.

٥

ليبق الأمل على بوابة الذكرى، وتبقى اللحظات الجميلة رهينة محبسها فى أغوار الذاكرة المتعبة، وتعيش الثورة.. والرفض.. والصراخ الواصل إلى النجوم، الطارق لأبواب السماء، وتبقى مريم.. نعم.. لتبقى مريم إلى الأبد، نبض القلب الضعيف، ونور العين، وإرادة الجسد القتيل.

لم تكن زيارة مريم لى هى الزيارة الأخيرة، لكنها كررتها يومياً حتى غادرت المستشفى سائراً على قدمىّ.

كانت مريم قوة الدفع التى أستعين بها مواجهاً النزيف الدموى الذى يفتك بى، ولقد لاحظ الدكتور باسيلى تقدم حالتى نحو الأفضل منذ ظهور مريم، قرأت ذلك فى عينيه وهو يطلق نحوى ابتسامته الهادئة التى أدركت معناها سماح بسرعة وقالت:

– للسعادة مفعول السحر فى العلاج.

قال الدكتور باسيلى باقتضاب:

– أكيد.

وخط بيده بضعة سطور فى تذكرة العلاج ونظر إلىّ قبل أن ينصرف وهو يكرر:

– أكيد.

كانت زيارات مريم تسعدنى كثيراً، كنت أنوب فى عينيها الرائعتين فى حديثها المنغم، حتى وهى تحدثنى عن المظاهرة التى اندلعت فى الجامعة صدى لأحداث لبنان، كانت معلوماتى القليلة عن الحرب الأهلية لا تسعفنى حتى أتابع حديث مريم بوضوح، فأنا أفتقد الكثير من الأحداث والتواريخ، لكنها أعادتنى إلى اللحظة الراهنة، جعلتنى أعيش معها أحزانها الشفيفة وحسرتها على الواقع العربى، حتى وهى تتحدث فى السياسة فأنا أستمتع بحديثها أنا أسمعك يا مريم، وأؤكد لك حزنى، لكنى لا أحتمل أن يطل الحزن من عينيك. عيناك يا مريم أرى فيهما مصر، بأرضها السمراء، ونيلها الكهل، ونخيلها الذى يُقبّل ثوب السماء،

عيناك يا مريم، ربيع الفرح، وخريف الأحزان، ارفعى الحزن عن عينيك، دعينى أراك كما كنت دوماً.

تنفرج الأزمة، وتموت الأحداث، وتضحك عيون مريم من جديد.

دخلت سماح إلى الغرفة هاتفة:

- مبروك.

نظرت أمى إليها فى لهفة:

- خير يا بنتى.

أجابت وهى ترمق مريم بنظراتها الخبيثة:

- الدكتور كتب لك خروج، «مع السلامة يا سيدى».

أطلقت أمى زغرودة رنت فى أنحاء العنبر، واتسعت ابتسامة مريم فى سعادة وانطلق حامد مسرعاً ليزف الخبر لأبى، وقالت مريم:

- الحمد لله.. أزمة وعدت.

٦

هو الليل.. بقوته وعنفوانه وجبروته، هو الليل.. سيد الكائنات وسيد الحزن والبكاء، إنه هو.. الجاثم على القلب فى الأيام القاتلة، لا يُسرق العمر بالأيام، إنما يُسرق بالليالى وها هو الليل، ينزف عمرى على سرير الوحشة، ويسرق منى أيامى فى قتامته الغادرة، وعتمته الماكرة، يسرق منى العمر، والفرح، والضحكة التى كانت، يسرة الخطوات، والآمال، والأحلام الصغيرة.

إنه الليل.. يفرش عباءته السوداء أمام عينى، ويستحضر صورة الموت الذى لا يجىء، يستحضر الموت المراوغ، الموت.. الذى يلعب معى لعبته الأثيرة، لا يأتى، ولا يذهب، لا يحضر، ولا يغيب.

هو الليل.. يقيم فى قلبى سرادقات العزاء لشمس النهار القتيلة، ضحية أنيابه المتوحشة.

أفرغت فوزية آخر محتويات عقارها اليومى الذى يزيد من عمرى ليلة أخرى، ليلة قاتلة لا تقتل، لا تقتلنى سوى ابتسامتك هذه يافوزية، ابتسامتك الرائعة كشمس يوم ربيعى النسمات، كأغنية أفراح القرى البعيدة، ودقة الأرض تحت كعوب الصبايا الصغيرات وهن يرقصن فى يوم عرس إحداهن، ويقرصن العروس فى ركبتها وهن يطلقن ضحكاتهن المجلجلات، شكراً لك يا فوزية، شكراً لدوائك الذى أصابنى بالملل وجعلنى أعتاد الرتابة والتكرار، شكراً لابتسامتك التى تمنحنى الحياة وتتراقص لها كرات دمى الواهنة، التى لا ترغب فى البقاء داخل جسدى الضعيف، وشكراً لسؤالك دائماً بعد خروج الإبرة من وريدى القتيل:

- أتريد شيئاً ؟

- شكراً ...

أشكرك يا فوزية على كل شىء، حتى على لحظات السعادة الغامرة التى تمنحينها لحامد كلما دخلت غرفتى أو خرجت، حيث تتعلق عيناه بوجهك المضىء الخالى من الحبوب، الصافى كحليب الصباح، وبرقبتك المرمرية، الطويلة كرقبة زرافة رعناء، تناطح قمم الأشجار وتعاند أغنيات العشق، وليالى الغرام،

وصباحيات ليالى الزفاف المشبعة بالأرز باللبن، وتتابعك عينا حامد عند خروجك، فيختلج قلبه، ويضيق صدره، وتتعثر أنفاسه المثقلة، وتقفز عيناه خلف ردفيك اللذين يعلوان ويهبطان، وكأنما يمسكان بنبضات قلبه، أو يقودان العالم إلى حتف لا مفر منه، هو الموت يا فوزية، تحت أقدامك، وفى قلب حامد، لا أريد أن أفكر فى شىء هذه الليلة، ولا حتى الألم، لقد سكنت الحركة من حولى، نام المرضى، واستكان المرض، وخلد الأطباء على أسرتهم الضيقة، وهجع الكون، بناسه وحيواناته وهوامه، حتى الحشرات لاذت بملاجئها وطلبت السكينة، وحامد شد الغطاء على رأسه ونام، كأنه لا يريد أن يزعج مشاعره بأى شىء يلهيه عن التفكير فى فوزية، نام حامد دون أن يقول لى «تصبح على خير» كالعادة، ودون أن أهزأ - كالعادة أيضاً - من هذه الـ «خير» التى سأصبح عليها، يالهذا العقل الجامح الذى لا يريد أن يستكين، أقول إننى لا أريد أن أفكر فى شىء، فلتهدأ أيها العقل، كما هدأت أجهزة كثيرة داخل هذا الجسد، اهدأ.. ونم.. واسترح، ودعنى أستريح قليلاً.

مددت يدى ناحية المذياع وأدرت المؤشر بهدوء، فخرج صوت المذيع المحايد - دائماً.

*** «وقد قال الرئيس الأمريكي إنه يدعو جميع الأمم أن تكون معه فى حربه ضد الإرهاب، وأن الذى لن يكون معه، فإنه بالضرورة سيكون ضده».**

ثورة الملائكة

حاشية:

١- «إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات»

«قرآن كريم»

٢- وحصل على الناس ما لا خير فيه، ووقع الغلاء العظيم، فكان يعادل الغلاء الذى وقع فى زمن يوسف عليه السلام، واستمر هذا الغلاء سبع سنين متوالية، فأكلت الناس بعضها بعضاً، حتى بيع القمح بثمانين ديناراً كل أردب، ثم اشتد الأمر حتى بيع كل أردب بمائه وعشرين ديناراً، ثم اشتد الأمر حتى بيع رغيف فى زقاق القنادل بخمسة عشر ديناراً وأكلت الناس الميته، والكلاب والقطط، حتى قيل بيع كل كلب بخمسة دنانير، وبيع كل قط بثلاثة دنانير، وقيل إن الكلب كان يدخل الدار فيأكل الطفل وهو فى المهد، وأمه وأبوه ينظران إليه، فلا يستطيعان أن ينهضا لدفع الكلب عن ولدهما من شدة الجوع.

«بدائع الزهور فى وقائع الدهور»

ابن إياس

نـــداء
يا أهل القاهرة

ادعوا للخليفة المستنصر بالله بالنصر، الذى أكلنا الرغيف فى أيامه بألف دينار.

«بدائع الزهور»

١٩

١

الطيور غادرت أعشاشها، والصباحات تتيه في المدى، والليل ينشر أحزانه وآلامه على الجميع، الصمت يسود الأمكنة، والتأهب على الوجوه المستفزة والعيون تنذر بالعاصفة، تتجمع الغيوم في الحدقات ويضيق الهواء بالصدور وترتعد الأجساد من شدة الانفعال وتميد الأرض بالحيارى الضائعين الباحثين عن مكان، ولا مكان، العيون القلقة تترقب مسيرة الليل الهادئ، تنتظر طلوع الفجر لتبزغ أشعة الشمس الكسولة، شمس يناير الناعمة، تنتظر الشعاع الأول ليفقأ الفقاعة التي انتفخت في الصدور طوال الليل، حتى تخرج الصرخات لتشرخ الحناجر، وتفتت الصمت وتمزق أرجاء الكون المستكين، وتعلن على الوجود الغضب وتقتل في داخلها الخضوع.

بالأمس.. بالأمس فقط صدرت قرارات الحكومة برفع الأسعار، سمعناها جميعا في نشرة أخبار التاسعة، قرأت الغضب المكتوم في عيون الناس، رأيت القشعريرة وهي تنفض أجسادهم، اهتزاز كراسي المقاهي أسفل منهم، احتراق عشرات أحجار المعسل وكركرة عشرات النرجيلات، كلمات ساخطة من هنا وهناك، الشعور بالموت وهو يقترب، الموت الجماعي الذي لا يبقي ولا يذر، الجوع يزحف نحو الشوارع والحواري الضيقة والأزقة الضائعة والبيوت المغلقة على آبار الأسرار، رأيت كل هذا، وسمعته، وشعرت به، لكني ومع كل هذا، لم أتوقع أبدا أن يحدث ما حدث.

لا أحد يعلم تحديدا من أين بدأ الانفجار، أو أيا من مناطق القاهرة كان له السبق، لكن المؤكد أن الأمر كان سريعا، وانتشر في شوارع القاهرة كألسنة اللهب التي تحملها ريح غاضبة.

بدأت الأخبار تتوارد عن مظاهرات خرجت من جامعة عين شمس إلى أن وصلت إلى ميدان العباسية، علمنا أيضاً أن مظاهرات مماثلة لعمال مصانع حلوان، وبدأت الجموع تتدفق بصورة مذهلة، نزلت إلى الشارع الذي كان يهدر ثورة وغليانا، أقدام الغاضبين ترجف الأسفلت وترج الأرض رجا.

هتافاتهم تهز العمارات العالية، وتقوض أركان النظام الذى لم يتوقع هبة الجياع وثورة المحرومين، المشهد أمام عينى أكثر من مخيف، وأكثر من رائع، أريد أن أنضم لهذه الجموع، أريد أن أصرخ فى وجه الظلم والقهر والغلاء والجوع الذى يسوقه النظام إلى جموع الشعب، أريد أن أصرخ فى وجه النظام نفسه، النظام المستبد الذى يقتلنا ببطء، أريد أن أكون واحداً من هؤلاء الذين يصرخون بقوة، ويدقون الأرض بأرجلهم، ويضربون الهواء بقبضاتهم، ويشرخون الصمت بهتافاتهم الهادرة، لماذا أقف مستكينا أمام هذا الشلال من الحركة؟ لماذا أقف صامتا أمام هذا الصراخ الذى انتفضت له مقاعد الحكام، وسقطت له نياشين الدولة من الطبقة الأولى؟ لماذا أكتفى بدور المتفرج على الأحداث، لا المشارك والفاعل فيها، شىء ما يجذبنى بعيدا عن هذه الصرخات، وأشياء أخرى تجر قدمى نحوها، وتدفعنى نحو الجموع المقاتلة بحناجرها وأصواتها، شىء ما يجذبنى نحو الكلمات الصارخة:

- يا حكومة الوسط وهز الوسط كيلو اللحمة بقى بالقسط.
- يا حرامية الانفتاح الشعب جعان مش مرتاح.
- عبد الناصر ياما قال خلو بالكم م العمال.
- يا أمريكا لمى فلوسك بكره الشعب العربى يدوسك.

جذبتنى الكلمات المنغومة، والصرخات الملغومة، كنت أشعر مثلهم بالغضب، لم أكن أقل منهم سخطا على الأحداث، لكنى اقلهم مشاركة فيها، هل هو الخجل من أن أرفع يدى وأصرخ معهم ؟ هل هو الخوف من أن ترانى أعين المخبرين وجواسيس الدولة، أعتقد أننى أجبن من أن أشارك فى مظاهرة حتى ولو كانت من أجل «رغيف عيش»، هؤلاء الناس أقوى منى، وأشجع منى، وأوفى منى للأهل وللبلد، بينما أكتفى أنا بالنظر إليهم وهم يقودون الأحداث ويلعنون لصوص القوت وتجار الزمن الانفتاحى الجديد.

قادتنى قدماى إلى ميدان العتبة، المظاهرات هنا أشد، الميدان على اتساعه لم يكن فيه مكان لقدم، تحركت بصعوبة وسط الأجساد التى تنضح غضبا، شاب

يساعده الآخرين ليصعد أحد أعمدة الإنارة ويسقط من عليها صورة للرئيس المؤمن وهم يهتفون (ناصر - ناصر)، ويلقون بصورة الرئيس على الأرض ويدهسونها بالأقدام، استشعرت حركة غير عادية وسط الجموع بدأت خوذات رجال الأمن تظهر وسط المتظاهرين، والعصى الطويلة ترتفع وتنخفض، يبدو أن الحكومة تحركت بسرعة، امتصت الصدمة وبدأت فى التعامل مع المفاجأة المذهلة، وبدأ الصراع يأخذ منحىً جديدا، يا إلهى..كيف أنساها، لا بد أنها الآن فى خضم هذه المظاهرات، ولكن أين؟ هنا فى العتبة، أم فى باب اللوق؟ أم فى مظاهرة شبرا ؟ أم فى مكان آخر لا أعرفه، يا إلهى.. لا تتركنى وحدى، لا تتركها وحدها، ترى أين أنت الآن يا مريم ؟

٢

لم أعثر على مريم، انقضى هذا اليوم الذى لن ينساه كل من شارك فيه أو رآه، انقضى يوم ١٨ يناير دون أن أتمكن من العثور على مريم فى أى مكان، انتشر الظلام بسرعة مع حلول الليل، هدأت الحركة نسبيا، ولكن الغضب ظل فى مكانه على الوجوه، وجدت مقعدا خاليا فى زهرة البستان حيث اعتدت قضاء الأمسيات مع حامد، حامد.. لقد نسيته هو الآخر، ترى أين هو ؟ وأين أنت يا مريم، لِمَ تُسببين لى كل هذه التعاسة، كل هذا العناء فى البحث عنك، يظهر أمامى جزء ضئيل من شارع طلعت حرب من خلال الممر الذى يربط الشارع بمقهى (زهرة البستان)، يضع صبى المقهى أمامى عصير العناب البارد والذى أحبه، يقول وهو يمسح المنضدة بخرقته القذرة:

- أرأيت ما حدث اليوم ؟

أهز رأسى دون أن أجيب، يكمل منفعلا:

- لقد اهتزت الحكومة، ولم تستطع الشرطة أن تفرقنا.

لم أستطع أن أتجاوب معه، عقلى فى مكان آخر، مع شخص آخر

- يعتقدون إننا سنصمت، كلا والله، يسرقوننا ونصمت.....

حامد ؟... نعم إنه هو، يقف أول الممر ناحية طلعت حرب، ينظر فى زحام المقهى باحثا عن أحد، عنى.. يبحث عنى، رفعت يدى نحوه مقاطعا صبى المقهى:

- حامد.

رآنى حامد، هرول ناحيتى، ملابسه ممزقه، وهيئته مزرية، قلت لصبى المقهى قبل أن يصل حامد:

- احضر مقعدا بسرعة.

قبل أن يتخطى حامد الزحام كان مقعده بجوارى، جلس منهكا ولوح بيديه.

- أين كنت ؟

أجبته بفتور:

- فى المظاهرة.

نظر إلى ملابسى النظيفة غير مقتنع لكنه لم يعقب:

- اطلب لى شاى.

كذبت عليه:

- بحثت عنك فى كل مكان، فى باب اللوق، والعتبة، حتى تعبت عيناى من النظر فى وجوه الناس، الأعداد كانت كثيرة و الحركة صعبة للغاية

- كنا فى السيدة زينب.

سألته باستغراب:

- كنتم ؟... أنت ومن؟

نظر إلىّ بعينيه المجهدتين وقال باقتضاب:

- مريم..... لقد سألت عنك.

- مريم ؟ أين هى؟

- انتظرتك حتى الواحدة، ثم ذهبت إلى الزملاء من عين شمس فى ميدان العباسية.

شعرت بالندم لأنى لم أكن هناك، لم أكن بجوار مريم، مريم.... صرخة غاضبة فى وجه الظلم والفساد، هى تجد نفسها دائما فى مركز دائرة الرفض، بينما أظل أنا قابعا فى ظل الهزيمة... الاستسلام، الفرجة، كم أتمنى أن أمتلك روحك يا مريم، روحك المقاتلة، العنيدة، المثابرة، روح مريم... روحى، أفقت على كلمات حامد وهو يرتشف الشاى بالنعناع.

- لم تقتصر الثورة على القاهرة فحسب، لقد اندلعت المظاهرات فى أماكن عديدة فى السويس، والمحلة الكبرى، وقنا، وأسوان، حيث ينتظر الرئيس ضيفه، وفى العديد من المحافظات، إنها نهاية هذا النظام.

قلت بهدوء:

- لا تكن متفائلا هكذا، لن تلبث الحكومة أن تلتقط أنفاسها وتضرب بيد من حديد.

أذهله برودى وعدم اكتراثى بالأمر، فقرر عدم الدخول معى فى جدل لا جدوى منه، وتلذذ برشف الشاى الساخن بينما تركت أنا العالم حولى، ورحت أفكر فى أمر واحد، كيف أعثر على مريم.

٣

الشوارع مشحونة بالغضب، والثورة تمد أذرعها فى كل شوارع المدينة العتيقة الثورة تخرج من كل البيوت متحصنة بالرغبة فى الحياة، أنباء عن نزول الجيش إلى الشارع، بدأ اليوم الثانى أكثر سخونة وأكثر تنظيما، وأكثر رغبة فى الانتقام واسترداد والحقوق، وأنا... وسط كل هذه الجموع، وسط كل هذا الضجيج، وسط كل هذه الحشود الهائلة، أجدنى وحيدا، نائيا، منفصلا عنهم، لا يربطنى بهم إلا أن تكون مريم هنا، بينهم، ترفع الشعارات، وتصوغ الهتافات، وتقود المتظاهرين، وتفتح النار فى وجه الفساد.

احتشدت قوات الأمن أمام البوابة الرئيسية لمجلس الشعب، الثائرون تجمهروا أمام المجلس.. الهتافات الغاضبة تصب لعناتها على مجلس الشعب ورئيسه:

– مجلس الشعب ده قرع وكوسة... والحرية يا ناس محبوسة

– سيد مرعى قاعد ليه.. جوز الجزمة بسبعه جنيه

رفع أحدهم صورة السادات وأضرم فيها النار، التفّ عدد من الثائرين حول النار، زاغت عيناى فى المشهد، من الصعب أن تعثر على شخص تريده، إنه يوم الحشر، إنه الزحام والغضب والثورة، اليوم اشد عنفا وأكثر عددا من سابقه، أصوات المظاهرة الكبرى فى ميدان التحرير تأتى لنا، تخترق الصرخات آذان المخبئين فى قصورهم، و تخترقنى، فأهتف معهم، يخرج صوتى ضعيفا خجولا لا يقوى على المشاركة، أجر قدمى خارجا من شارع مجلس الشعب باتجاه القصر العينى، متوجها نحو الأعداد الغفيرة التى أغلقت ميدان التحرير من كل مداخله، أعداد هائلة من البشر، ممالك من النمل الصغير يسد الميدان والشوارع المؤدية إليه، والغضب يفرض سطوته على الوجوه وعلى الأمكنة.

انطلق آذان الظهر من مسجد عمر مكرم، الحشود الأمنية تحيط بمبنى جامعة الدول العربية، على الرغم من عدم حاجة المتظاهرين إليها (دواعى أمنية).

أبحث فى كل مكان، أتنقل بصعوبة بين الناس، عيناى تقرءان الوجوه، الشفاه، أين أجدك يا مريم ؟ أخبرنى حامد أنك ستكونين هنا، ولكن أين هنا ؟ أين وسط

هذه الآلاف، من الجنون البحث عنك وسط هذه الأمواج الهادرة، من العبث أن أبحث عن نجمة البحر فى قاع محيط مظلم يموج فى قسوة وعنف، لكنى - وبالرغم من كل هذا أشعر بك قريبة منى، على بعد طرفة عين،على بعد نَفَس، لحظة، عمر كامل، بيننا شعاع شمس، وملايين السنوات الضوئية، بيننا خطوة قدم، وآلاف الكيلو مترات، بيننا أغنية لفيروز، وقصيدة لأمل دنقل، ماذا بيننا؟ بيننا القرب والبعد، بينى وبينك يا مريم ثورة الجائعين وجوع الثائرين، اظهرى يا مريم، اخرجى من وسط الجموع الغاضبة، أضيئى ظلام النهار الطويل، أعيدى إلىّ صوابى، يكفينى يومان من البحث عنك، لم أعد أستطيع.

***

رأيتها..... كواحة ظهرت فجأة فى قلب صحراء قاحلة، كنجم تهتدى به سفينة تائهة، قطرة ماء أنقذتنى من عذاب الظمأ، نور فجر أنهى ظلام قلبى فى اللحظة المناسبة، رأيتها، خرجت من وسط الجموع محمولة فوق الأعناق منتصبة فى قوة وشموخ، تضرب الهواء بيديها، تشرخ الفضاء بصوتها، تلعن الصمت والخنوع، كنقطتين ضائعتين كنا، كل منا يبحث عن ضالته، وهى ضالتى واهتديت إليها، ورغم الأعداد الغفيرة من البشر، آلاف الأذرع التى تلوّح فى الهواء، آلاف الأقدام التى تضرب الأرض فى عنف وقسوة، آلاف العيون الغاضبة التى تطلق شررا داميا، بالرغم من كل هذا، وكأنما بسحر ما يشدنا، التقت عيوننا، عبرت المسافات، وتجاوزت مرارة المحنة، واشتبكت فى عناق صامت طويل، وغنيت لحنا جميلا، ألقت مريم بنفسها على الأرض واتجهت نحوى فى بساطة أحسدها عليها، بينما كنت أخوض بحر الأجسام فى صعوبة لأقطع الطريق إليها، وما إن تلامست أكفنا حتى هتفت:

- أين كنت ؟ كنت أبحث عنك منذ أمس.

قلت بلهفه:

- وأنا أيضا، هيا بنا.

أمسكت بيدى بقوة وهتفت:

– إلى أين ؟

– لقد أعلنوا حالة الطوارئ، والتى ستبدأ من الرابعة عصرا، وسيكون من الجنون البقاء فى الشارع بعد هذا الموعد.

قالت بعناد:

– الشارع هو مكاننا الوحيد الآن.

نظرت إليها متضرعا:

– مريم... أرجوك.

وابتسمت مريم....يالابتسامتها الساحرة.

٤

بداية غير مطمئنة، العام الأول لنا فى الجامعة وتشتعل المظاهرات، وتندلع الحرائق، وأرى الوجه الآخر للجامعة، نشاطات الطلبة، التنظيمات الداخلية، والتكتلات المختلفة، عالم آخر غير الذى كنت أعرفه، عالم لم أتوقع وجوده خاصة خلف أسوار الجامعة،

ومريم.. الملاك ذو الأجنحة النورانية، نسمة الربيع الضاحكة والتى تحولت فى لحظة إلى إعصار مدمر، جزء لا يتجزأ من منظومة الرفض التى دوّت بقوة فى البلاد، تراجعت الحكومة عن قراراتها برفع الأسعار، وعادت المياه إلى طبيعتها، عاد النهر إلى مجراه، والنخيل إلى عليائه، والراحة إلى نفوس مجهدة، عاد الفلك إلى دورانه من جديد.

وتبقى مريم..... أجمل ما اكتسبته هذا العام، وأروع ما فى الجامعة، وأحلى ما فى الدنيا، السكون يسيطر على الجامعة، الهدوء يلف المدرجات الصمت يقيد الألسنة و الوجوه.

مر أسبوع كامل على المظاهرات، لم أخرج من البيت منذ لقائى الأخير بمريم، فى آخر يوم من انتفاضة الخبز، أو انتفاضة الحرامية كما اسماها الرئيس المؤمن، لم أر مريم ولا الجامعة، وعندما أعود اليوم أجد الصمت فى انتظارى، مبانى الكليات متباعدة ومتنافرة، حالة من الترقب ترتسم على الوجوه القليلة التى أصادفها، توجهت نحو كلية الحقوق لعلّى أجد حامد الذى لم يظهر خلال الأسبوع الماضى، ولم يحدثنى تليفونيا على غير عادته، لعنت المرض الذى أقعدنى الأسبوع الماضى، وأبعدنى عن الأحداث، ترى ماذا جرى ؟ بعض الطلبة والطالبات يجلسون على درج الكلية، يبدو أنه لا أحد بالداخل، هل أسال عنه ؟ لا أعرف منهم أحدا، ما إن التفت لأعود أدراجى حتى وجدته أمامى، يكاد وجهه يلتصق فى وجهى، احمرار فى عينيه، شعر أشعث، ورعشة خفيفة فى شفتيه، سألت فى دهشة:

ـ حامد....ماذا جرى لك ؟

أمسكنى من يدى قائلا:

- تعال.

سرنا صامتين و أنا يكاد يقتلنى الفضول إلى الكافيتريا، جلس متحصنا بصمته إلا أننى لم أستطع:

- ماذا حدث؟

- أسمعت بحملة الاعتقالات؟

- هل اعتقلوك؟

- لا.. لكنهم اعتقلوا العديد من الزملاء... و الأساتذة

ثم نظر إلىّ مترددا ثم قال:

- واعتقلوا...اعتقلوا

نفد صبرى وأنا أسأله:

- اعتقلوا من؟

ألقاها فى وجهى وكأنه أراد أن يتخلص منها:

- اعتقلوا مريم.

٥

أُلقىَ القبض على مريم فى اليوم التالى للمظاهرة، داهموا منزلها فى الثانية صباحا، هو الوقت نفسه تقريبا الذى شعرت فيه بتقلصات فى معدتى، لا أدرى لها سببا، لم يعاودنى النزيف هذه المرة، لكن الدوار كان شديدا، التزمت البيت كل هذه الفترة، بينما كان حامد يتردد على منازل الأصدقاء المعتقلين، وكانت مريم هناك.... بعيدا، فى أيديهم.

عشرة أيام كاملة قضتها مريم لديهم، وقضيتها أنا فى الجحيم، جحيم الانتظار والشعور بالعجز، حذرنى حامد من السؤال عنها، معظم المعتقلين لفقت لهم القضايا، الآن يتهمون الجميع بالانضمام لليسار، ويتهمون اليسار بالتخطيط للثورة وقلب نظام الحكم، مئات القضايا ومئات المعتقلين، ولا يسمع النظام إلا صوته فحسب، أنا لا يهمنى كل هذا، كل ما يشغلنى الآن.. مريم، هى دنياى ووطنى، واحتى وسكنى، فكيف لى أن أشعر بالراحة وأنا غريب بلا وطن ولا سكن، آه يا وطنى الذى اعتقلوه، يا وطنى الحبيس فى غياهب السجون، أنّىَ لعين مريم ألا ترى إلا قضبان السجن، كيف احتملت يداها الرقيقتان برودة الأغلال، و خشونة الإسفلت، ومعاملة عساكر النظام، كيف خرجت الشمس على الدنيا ومريم فى سجنها، لا... لا شمس ولا قمر، لا ليل ولا نجوم، لا دنيا ولا حياة، إذا غابت مريم بقى الحزن، الحزن... سيد الكائنات، وواهب الدموع والألم.

عشرة أيام كاملة.. لم أعشها، أسير فى الشوارع فتلفظنى الأرصفة وتطردنى البيوت وتقتلنى النهارات المتتالية وتأسرنى الليالى التى تمد حبالها الطويلة على قلبى، لا الليل يمر، ولا النهار ينقضى، ولا الأيام تدور فى مداراتها، هو السكون يجثم على القلب، وعلى الحياة، هو الموت يجتاح الموجودات ويقتل مفردات الحياة.

مريم فى المعتقل.. كيف تقضى ساعاتها التى لا تنتهى، كيف أقضى ساعاتى التى لا تمر، وفجأة أشرقت الشمس، وغنت العصافير، ودق جرس الهاتف، حامد على الناحية الأخرى يهتف سعيدا:

– أفرجوا عن عدد من زملائنا من سراى النيابة.

قلت بلهفة:

- أى نيابة.

- من نيابة أمن الدولة.

- ومريم.

- مريم معهم بالطبع، وإلا لماذا اتصل بك !!

***

كان النيل يجرى فى سعادة، والهواء يداعب أغصان الشجر، و الفرحة تطل من العيون، لم أكن أتوقع أن تكون مريم بهذه القوة، خرجت من التجربة أكثر شدة و صلابة، جلست بجوارى على كورنيش ماسبيرو وعيناها تلمعان نشوة، تنظر للنيل باستغراق، قالت:

- سيظل هذا النيل يجرى مهما حاولوا إيقافه، يغرقهم جميعا، سيفنون جميعا ويبقى النيل، ويبقى البسطاء على ضفافه.

- مريم...

نظرتْ إلىّ تحاول أن تخبئ حسرتها بابتسامتها الساحرة، الهواء يعبث فى شعرها برقة، ترفع بعض خصلات سقطت على عينيها، أذوب عشقا أود لو آخذها بين ذراعى، أن نذوب معا، تقول:

- مهما حاولوا.. لن نموت ولن نسكت بعد اليوم.

اتسعت ابتسامتى وأنا أقول:

- أحب فيك قوتك، كنت أتمنى أن أكون مثلك.

فجأة... وبدون مقدمات لمعت عيناها، فجأة... ودون أن آخذ حذرى، انفجرت عيناها بالدموع، فجأة... وقبل أن أحتاط للأمر، ألقت بنفسها فى حضنى وعلا نشيجها، وأخذت تهمس من خلال دموعها:

- أنا لست قوية كما تعتقد، أنا ضعيفة.. ضعيفة.

شعرت بدموعها تغرقنى، تجرفنى نحو الضياع، مرّغت رأسها فى صدرى،

وقد نسيت أننا فى الشارع، التصقت بى أكثر وأكثر:

– ضمنى.. ضمنى إليك، أريد أن أشعر بالأمان.

٦

تسرقنى اللحظات الماضية من الألم الآتى، تأخذنى الأيام الخوالى من عذاباتى التى لا تنتهى، وحشة العنبر وغربة الليل، وذكريات أول عام لى فى الجامعة وأول مظاهرة أراها حية تنبض فى شوارع القاهرة، الحب الوحيد الذى أخذنى إلى عوالم مجهولة - رائعة - مريم....أنشودة الربيع الدائم، وأغنية الحياة الخالدة.

دخل شعاع الشمس متلصصا عبر ثقوب النافذة المطلة على فناء المستشفى، يوم جديد يفتح أبوابه على الحياة، استغرقتنى الذكريات ولم أنم هذه الليلة.

لماذا أتذكر كل هذه الأحداث، تمر أمامى كشريط السينما، يعرض الأيام والأماكن، الأحاسيس والمشاعر، دون أن ينسى شيئا.

آه... رأسى ثقيل، العالم كله ثقيل، يدور بسرعة، لا أتحمل دوران الأرض، متى ستأتى يا فوزية، أشعر بالعطش، لكنى لا أستطيع أن أشرب، منع الأطباء عنى حتى الماء، كيف يعيش الإنسان بعد ذلك، الماء الذى يحيا به كل شىء، كيف لى أن أحيا بدونه ؟ أدير رأسى للجهة المقابلة، أمى تنام على السرير المقابل، تتبادله مع حامد كلّ يبيت معى ليلة، وأنا أبقى كل الليالى، هيا يا فوزية، إئتنى بإبرك القاتلة، وقوع البلاء خير من انتظاره، فليقع البلاء إذن، وليكن ما يكون.

خطوات تقترب من الغرفة فى ثقة، يبدو أن أمى شعرت بها، فاعتدلت وتحصنت بالملاءة لتغطى جسدها، دخل الدكتور صلاح عابسا:

- صباح الخير.

قلت ساخرا:

- لا يبدو أنه خير.

تجاهل ملاحظتى و سألنى:

- هل نمتَ جيدا ؟

- ولا لحظة واحدة، ولكن دعك منى، ماذا حدث ؟

التفت إلىّ وقال:

– ألم تسمع الأخبار؟

قلت:

ـ لم أفتح الراديو اليوم.

أشار إليه وهو يجلس على المقعد المقابل قائلاً:

ـ إذن افتحه واسمع.

انساب صوت المذيع ليملأ الحجرة بنغمته الرتيبة:

*** «هذا ويصل إلي بغداد غدا هانز بليكس رئيس فريق مفتشي الأسلحة ود. محمد البرادعي مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية.. في أول مقابلة له بعد جلسة مجلس الأمن أكد كولن باول وزير الخارجية الأمريكى أن العراق يسير على طريق الحرب.. وأنه يريد أن يظل الأمل قائما فى إمكان تجنب الحرب؟»**

أغلقت الراديو وقلت:

ـ هى الحرب إذن.

مط شفتيه قائلا:

ـ فقط يكتمل السيناريو المرسوم

ثم نهض وصرخ:

ـ أولاد الكلب.

دخلت فوزية على صرخة الدكتور صلاح، فالتفت إليها ونظر إلىّ والغضب يقفز من عينيه، وخرج مسرعا دون أن يعقّب،

اقتربت فوزية وخرجت كلماتها هامسة خائفة:

– صباح الخير.

لم أستطع أن أجيب عليها، حتى أمى تملّكها الذهول ولم تنطق، اقتربت فوزية منى أكثر وسألت:

ماذا حدث ؟

العطش

حاشية :

ترى ما الذى جعل أولئك الأغراب يختفون عن الأنظار الآن، وقد انتهوا من بناء الطريق، ولماذا صعد الرجال والجياد والعربات السهل الكبير، ليختفوا وراء ضباب الشمال، أيكون كل هذا العمل الضخم من أجل لا شىء ؟!

صحراء التتار

دينو بوتزاتى

١

عند اصطدام الحزن بجدار القلب.. يبدأ الليل، الظلام موحش وكئيب، يهجم بالأسى، وتتعالى الآهات من العنابر المجاورة، الحناجر تشق ثياب الظلمة، تشتت راحة الطيور النائمة فى وداعة وتخترق الفضاء، تطرق أبواب السماء لا ترجو سوى الرحمة، الرحمة.. التى تطلبها لى أمى عقب كل صلاة، ترفع يديها إلى السماء، تسح عيناها دمعاً عزيزاً فى كل مرة، وتدعو لى بالشفاء، وأن أترك فراش المرض الذى بات يشبهنى وأصبحت أشبهه. طوت أمى سجادة حزنها وهى تطوى سجادة الصلاة تحت قدميها وانتظرت طويلا لتغالب نوافذ الحزن التى تلح على فتح مصاريعها، نهضت.. أخيرا نهضت، مسحت وجهها بكفها فاغتسل ببقايا دموعها، نظرت نحوى وهى ترسم على وجهها ابتسامة متعبة، جلست على طرف السرير المقابل، ثبتت نظرتها على وجهى، بينما أخذت عيناها تجر ذكرياتها منذ زواجها بأبى، ومرور السنوات دون أن تظهر بادرة واحدة تشى بأن يمكنها أن تضع مولوداً، قراءة الحزن فى عينى أبى، والاتهامات فى عيون الآخرين، زياراتهما العديدة لعيادات الأطباء، وأضرحة الأولياء، وبيوت المشايخ والدجالين والنصابين، وزيارة الجبانة فى الليل، ومشرحة المستشفى، وعبور خط السكة الحديد، وعبور النهر، وكل وصفات الأصدقاء و الأحبة، وربما الأعداء والذين فى قلوبهم مرض وأكثر، فرحتها وهى تتحسس بطنها حينما أرفسه وأنا داخلها ! احتضانها لرأس أبى وهى تقرب أذنه من بطنها، «اسمع»، فيسمع، ويتهلل وجهه فرحاً وانبساطاً، وأطرق أبواب الدنيا، وحيداً، لا يعقبنى أحد، فكأنما أتيت ليفرح أبى فرحته الوحيدة، وترفع أمى رأسها بين العيون المترقبة والحاقدة، ثم يمتنع بطن أمى عن حمل الأولاد، دون سبب ظاهر، اللهم إلا حكمة الله التى أرادتنى ظهراً لأبى، ظهراً بلا ظهر.

تهيج الذكريات فى رأس أمى وهى ترانى بين أصابع الموت، يكاد يخطف فرحتها الوحيدة أمام عينيها، تذكرت الراديو الذى أغلقته قبل أن تشرع فى تأدية

صلاتها، مدت يدها إليه، أدارت المفتاح الصغير،ليملأ جو الغرفة صوت شادية الرائع:

«ليالي العمر معدودة/ وليه نبكى على الدنيا/ وناس فى الدنيا موعودة/ نصيبها يروح لناس ثانية»

وينساب من بين اللحن القاتل صوت فاتن حمامة القتيل:

«خسارة.. الكاس فضى»

طعنت الكلمات أمى فى قلبها، عجزت عن الحركة للحظات ومدت يدها لإغلاقه من جديد، وبينما تهم بإغلاقه ! اصطدمت نظراتها بعينى، قرأت فيهما رجاءً صامتاً بأن تتركه، فتراجعت يدها، وعادت لتجلس على السرير المقابل ارتجفت جفونها وزاغت عيناها باحثة عن مكان تستقر عليه، دون جدوى، قالت دون أن تنظر إلىّ:

- لقد تأخر حامد.

- سيأتى.

جاءنا الرد من عند باب العنبر، نظرنا باتجاه الباب، فإذا بغباشى يقف بطوله الفارع وجسده الضخم ووجهه الأحمر المليء بالبثور، تقدم غباشى عامل المشرحة وجلس على المقعد القريب من فراشى، بينما أحكمت أمى لف طرحتها على رأسها وهى تتمتم «سلام قولا من رب رحيم»، لم تحب غباشى يوما، وتتشاءم برؤيته، تستعيذ بالله، وتسأل الله العافية لى ولها ولأبى، غباشى يمثل لها ظل عزرائيل على الأرض، فهو متعهد الموتى، ورفيق الجثث ويده التى تغسل الموتى تنبعث منها مخالب شيطانية، لا يراها أحد سواها، الخلاصة.. هى لا تحب غباشى، وغباشى نفسه لا يأبه لذلك، وربما لم يكن يعلم ذلك أو لم يكن يهتم بأن يعلم، لأنه فى معظم الأحيان صامت لا يتحدث مع أحد، لم يدخل غرفة أحد من المرضى سواى، كان دائماً يقول لى هامساً:

- لأننى أحبك يا أستاذ.

قلت وأنا أحاول أن أرتب أفكارى المشوشة:

– هل أخبرك حامد بشىء ؟

لم يرد غباشى، و إنما استمر فى تدخين سيجارته بلذة وكأنه يقضم شفاه حبيبته، يمتصها بلذة ثم يلقى بقايا الدخان فى نشوة فائقة، لم أرغب فى قطع متعته، امتنعت عن الكلام، بينما راحت أمى تبسمل وتحوقل.

*** صدام يرفض تدمير صواريخ صمود ؟**

أمريكا وبريطانيا وإسبانيا تقدموا بمشروع قرار جديد لمجلس الأمن.

ـ عدلى الحرامى.. يسرق رزق العمال الغلابة.

قالها غباشى وأولانى ظهره وانصرف، حاولت أن أبتسم، لم أجد لدىَ القدرة، حامد تأخر كثيراً، والذكريات عادت تهاجمنى من جديد، وعاد وجهها مرة أخرى يملأ سماء الغرفة وسماء ذاكرتى المجهدة، وعاد وجهها ينير لى لحظاتى الباقية، عادت مريم.

*** العراق لم يغتنم الفرصة الأخيرة لنزع أسلحته.**

فرنسا ترد بمبادرة لتلافى العمل العسكرى.

٢

لم تعد مريم تماماً، لم تعد مريم التى عرفتها منذ شهور قليلة، فقدت شيئاً ما لا أستطيع أن أدرك كنهه، ربما كان روحها، ربما كانت الحياة التى تتدفق فى خطواتها، ربما كان الأمل فى المستقبل، شىء ما تركته خلف جدران مبنى المباحث، وخرجت بدونه، فخرجت مريم أخرى، لا أعرفها ولا يعرفها أحد، ولا تعرف هى نفسها، كلما حاولتُ أن أستدرجها فى الحديث لأعرف منها تفاصيل ما حدث، قفز الرعب والخوف والألم فى عينيها، وبعد برهة ترجونى أن لا أتحدث فى هذا الموضوع مرة أخرى، أدركت مدى ما تعانيه مريم، ولم أرغب بعد ذلك أن أذكّرها بما جرى، كنت أحاول أن أجعلها تنسى هذه اللحظات، هذه الأيام وهذا الألم، وكانت هى تحاول أيضا، تجتهد فى المحاولة، لكن.. حتى فى مرحها البادى، تتبقى مسحة حزن على وجهها، يتبقى جرح غائر لا يندمل، ولا يبدى رغبة فى الشفاء، فيصيبنى بالألم، وينهشنى الخوف عليها.

لم تكن بنا رغبة فى التفكير، كيف مر عامنا الدراسى الأول فى الجامعة، كيف نجحنا بتقدير مقبول فقط «لم نكن نتوقع النجاح فى حد ذاته» لكن الصيف كان جميلاً، رائعاً لأنه كان يجمعنا دائماً ، افتقدنى حامد هذا الصيف، لكنى لم أكن أهتم، تكفينى مريم، يكفينى أننى أمسح دموعها، و أجفف أحزانها، وتشعرنى كم جميلة هى الحياة ورائعة، مضى الصيف، لا كأى صيف مضى، مضى أحلى من كل أيام العمر، على الرغم من مخالفتى لتعليمات الأطباء بعدم الإجهاد، والحركة بحدود، فقد كنا نجوب شوارع القاهرة – مريم وأنا – فى كل أوقات النهار، دون كلل، ودون الشعور بأى تعب، بالرغم من كل هذا كنت أشعر أننى فى كامل صحتى وكل قوتى، ولم يدهمنى النزيف الذى كنت أخشاه، تحذيرات أمى تطن فى أذني، تنبيهات الدكتور باسيلى، ولكن تبقى اللحظات الحلوة.. ومريم.

مريم.. التى بدأت أشعر أنها تتحسن على يدى، أنها تعود كما عرفتها من قبل، أعلم أننى لم أستطع قتل الوحش الذى يتمثل لها كل صباح، لكننى أعرف

أيضا أننى استطعت أن أجعله ينام أطول وقت ممكن، استطعت أن أخدّره وأقيّده فى مكمنه. بينما رجعت الروح - رويداً رويداً - تتنسم رحيق الحياة، فيضمنا النيل تارة، نتجول عبر الأتوبيس النهرى، نأخذه من محطة ماسبيرو حتى روض الفرج «نزهتها الأثيرة»، نشرب عصير القصب من محل محمد المراغى الشهير، ونأكل كيفما اتفق دونما ترتيب، أو تجمعنا شوارع القاهرة ليلا - تارة أخرى، فنسير على أقدامنا حتى ينهكنا التعب، فنجلس على الأرض متعبين، وتضحك عيون مريم، ووجه مريم، وتضحك الحياة لمريم، ليت الزمن يتوقف عند هذه اللحظة، ليت السعادة تدوم، أقرأ هذا فى عينيها وتقوله دقات قلبى، ويقوله الليل وأضواء الشوارع ولافتات الإعلانات ودور السينما والمطاعم والمقاهى والشوارع والأزقة، والحياة.. الحياة على فم مريم.

٣

إنه الخريف، حيث ينتحر الربيع على أبوابه، وتموت الخضرة وينتشر اللون الأصفر الشاحب ليفرض سطوته على الوجود، وعلى الأرواح واللحظات الثقيلة المجهدة، إنه الخريف.. حيث يبدأ عامنا الثانى خلف أسوار الجامعة العتيقة بقبتها الشهيرة، وساعتها المطلة على مبانيها وعلى الميدان الواسع بالخارج، نتقدم بخطوات ثابتة، تعرف طريقها جيداً، كان حامد فى شدة الغضب لأننى قضيت الصيف بعيداً عنه، هذا هو أول صيف أبتعد فيه عن حامد منذ التقينا فى الصف الأول الإعدادى، لم نكن نبتعد عن بعضنا أيام الدراسة ولا الإجازة، فكيف طاوعتنى نفسى أن أنساه كل هذه الشهور، كنت أضحك و أقول له مغيظاً:

– إنها مريم.

تضحك مريم ضحكة عالية رقيقة وتقول وهى تداعب أصابعى:

– تركته لك ما فات، فاتركه لى.

يخرج لها حامد لسانه قائلاً:

– لن يحدث، لن يستطيع.

يشملنا الضحك وتحفنا السعادة ونحن نتسكع بين طرقات الجامعة.

– آنسه مريم.. لو سمحت.

التفت ثلاثتنا ناحية الصوت، ضابط أمن الجامعة ومعه جنديان، أسقط فى يدى وانتابنى خوف شديد بينما رفعت مريم رأسها بقوة وهى تقول:

– نعم.

– رئيس الأمن يطلبك فى مكتبه.. لو سمحت.

هزت كتفيها وقالت ببساطة:

– لا بأس.

هممنا بصحبتها، إلا أن يد الضابط ارتفعت و قال:

– وحدك.

التفتت إلينا وهى تبتسم قائلة:

– انتظرانى فى الكافيتريا، لن أتأخر.

ماذا يريدون منها ثانية، ألا يكفيهم ما فعلوه بها، يا ربى.. رحماك، عجزت قدماى أن تتقدما خطوة واحدة، شعر بى حامد، وضع يده حول خصرى وساعدنى على المشى، لا أدرى كيف وصلت إلى الكافيتريا، ولا كيف جلست ولا كيف مضت الدقائق القاتلة، ربما لم تتأخر مريم، وربما غابت سنوات طويلة، لا ادرى، فقدت الإحساس بالزمن، لم أكن أشعر إلا بالخوف.. الخوف عليها وعلى سعادتى التى تتسرب كالماء من بين أصابعى، عندما رجعت مريم كانت شاردة، نظراتها زائغة، خطواتها مرتبكة، تخفى رعدة خفيفة فى أوصالها، جلست أمامى لكنها لم تكن تنظر إلىّ، لم أجرؤ أن أسألها بينما كان الفضول يكاد يقتلنى، أنقذنى حامد عندما سألها:

– ماذا يريدون؟

انتهت من شرودها وحاولت أن تغتصب ابتسامة بدت زائفة ولوحت بكفها الصغيرة قائلة:

– لا شئ.. لا تهتموا.

اصطدمت بنظراتى، قرأت فيها الخوف فاستطردت محاولة أن تطمئننى:

– لا تقلق، إنهم يحذروننى من أى نشاط داخل الجامعة.

قال حامد:

– نشاط سياسى؟

– عادت تبتسم وهى تجيب:

– بالطبع.. نشاط سياسى.

وشردت ثانية مع أفكارها إلا أنها لم تطل شرودها، وعادت بسرعة وقد اكتست ملامحها بالغضب وهى تقول:

– ولاد الكلب.

٤

عيد الأضحى، الجزار الذى جاء به أبى بعد صلاة العيد يعلق الخروف على باب الشقة بعد أن نفخه بفمه فصار كالقربة، ثم يضربه بعصا رفيعة ضربات سريعة متلاحقة تمهيداً لسلخه، الفرحة تكسو وجوه الأطفال من أقاربنا، وجيراننا يملؤون المكان، ضجيجهم يملأ الهواء، يتفاخرون بملابسهم الجديدة ومن حين لآخر يتابعون عملية السلخ. صوت الراديو الضخم بمقهى جابر النولى يصدح بصوته المرتفع ليسمع الشارع كله أغانى العيد والفرحة، يتسلل الصوت داخل شقتنا ليأخذ حيزاً مع جلبة الأطفال وصوت عصا الجزار والذبيحة التى جزرت وتنتظر السلخ.

فشلت كل محاولات أبى و أمى فى إخراجى من غرفتى، لم أُصل العيد، ولم أنظر إلى الشارع، لم تكن بى رغبة حتى فى النهوض من على الفراش، لأنه ببساطه لم يكن اليوم عيداً، كيف يكون اليوم عيد ومريم غائبة ؟ إن غيابها يوقف المكان والزمان وحضورها يستحضر البهجة ويجعل من أيامى كلها أعيادا ولياليً أفراحا دائمة، مريم اليوم فى حضرتهم، فى حضرة وحوشها الذين سلبوها ابتسامتها الرائعة، أذكر ثورتها.. انتفاخ عيونها بالغضب صراخها الهستيرى:

ـ هل سمعت ؟ يقول إنه سيذهب إلى آخر العالم من أجل السلام، أى سلام يبحث عنه هذا الرجل، وكيف يفكر فى الذهاب إليهم، إن دماءنا لم تجف بعد.

قلت أحاول تهدئتها:

ـ لن يذهب يا مريم، إنها بلاغة خطابية فحسب، ولن يذهب إلى أى مكان.

ابتسمت فى مرارة وقالت:

ـ بل سيذهب، مادام قالها فهو يعنيها، صدقنى.. هذا الرجل لا يصنع السلام، إنما يصنع مجده الشخصى، لن يعطوه سلاماً ولا مجداً، ولكنهم سيجرونه إلى صلح منفرد، يضيع به دور مصر وتضيع هيبتها، إنه سيضع رأسنا فى التراب.

أرى أنها تتحامل على الرجل كثيرا، أعرف أنها تكرهه، وتفسر كل أقواله

وأفعاله من خلال مشاعرها تجاهه، حاولت كثيرا أن أغير فكرتها، ولما فشلت حاولت أن أجعل نبرتها أهدأ حتى لا يسمعنا أحد، فهم خلف الجدار، وأسفل المقاعد، وتحت جلودنا، أشاحت مريم بيديها علامة اللا مبالاة وقالت إنها لم تعد تخشاهم، فهم جبناء كالذين يحمونه تماماً، وضعت حقيبتها على كتفها ونهضت فجأة:

- إلى أين ؟

صمتت قليلا كأنها تفكر فى وجهتها ثم قالت:

- لا أدرى أريد أن أكون وحدى.

أشارت إلى سيارة أجرة، ركبت خلف السائق وتاهت السيارة فى زحام الشوارع القديمة التى استعادت كآبتها بغياب مريم، قبل وقفة عرفات بيومين اثنين ألقوا القبض على مريم وعلى آخرين، لم نكن نعلم السبب وراء هذا الإجراء، فمنذ أن استدعاها ضابط الأمن بالجامعة قبل شهرين لم يحدث أى شىء، لماذا اعتقلوها إذن ؟ بالأمس فحسب عرفت كل شىء عندما أذاعوا عن توجه طائرة الرئاسة إلى القدس فى رحلتها التاريخية، وأن الرئيس المؤمن سيصلى عيد الأضحى فى المسجد الأقصى، ثم يلقى خطابه التاريخى أمام العالم أجمع، سيمد يده بالسلام ويحقن الدم.

يأتينى صوت مريم وهى تردد:

ـ سيذهب، مادام قالها فهو يعنيها، صدقنى..

***

عاد أبى مرة أخرى، طلب منى أن أساعدهم فى توزيع لحم الأضحية، اعتذرت إليه بأدب، قلت إننى لا أستطيع النهوض، سألنى إن كنت مريضا، فأجبته بلا، ولكنى أشعر أن قواى منهكة، أريد أن أستريح، ربت على رأسى وخرج، تركنى وحدى، لا.. بل تركنى بصحبتها، أنا لا أكون وحدى أبدا دائما هى معى، تسبب لى الفرح، وهى أيضا تأخذنى إلى حقول الأحزان.

إلى متى يا مريم؟ إلى متى سيظل هذا الحال بنا ؟، لقد نجحنا العام الماضى بصعوبة، فكيف يمر بنا هذا العام، وكيف تمر الأعوام الأخرى، كيف تمر الأيام والليالى، والعذابات التى لا تنتهى.

أين هى الآن؟.. ماذا تفعل؟ هل تتعذب؟ هل تجلس فى زنزانة منفردة؟ الوحدة قاتلة، قاتلة يا مريم، أعرفها جيداً حين تغيبين عنى، وأعرف الأسئلة التى تنهش عقلى، من يجيبنى يا مريم ؟ من يعيد لى ضوء النهار؟ لا أدرى كم مر علىّ من الوقت وأنا أرقد فى فراشى، لا أدرى إن كان الوقت نهاراً أو ليلاً، لكنى سمعت صوت التليفزيون فى الصالة يذيع مراسم اللقاء المسمى بـ «التاريخى» شعرت بدوار خفيف، لكنى تحاملت على نفسى، نهضت، وضعت قدمى على الأرض، الأرض لا تحتملنى، تميد تحت ثقل جسدى النحيل، استندت بيدى إلى الحائط حتى وصلت إلى باب الغرفة، التليفزيون فى مواجهتى تماما، أبى و أمى يولياننى ظهريهما يتابعان الحدث لقد بدأت مراسم الحفل، تصفيق حاد من كل أعضاء الكنيست، الرئيس يرتدى نظارته الطبية، يعدل الأوراق التى أمامه، وصوته القوى اخترق ميكروفونات وسائل الإعلام وتليفزيونات الدنيا، قال الرئيس بقوة:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام لكم ولنا جميعاً

لم أر شيئا بعد ذلك، فقد مادت بى الأرض، وسقطت فى مكانى.

٥

هذه زيارتى الثانية للمستشفى، ولنفس العنبر ولنفس السرير، الضباب.. إنه نفس الضباب الذى يحيطنى دائماً، الشعور بالضياع وعدم الثبات، الأرض التى تدور حول نفسها ألف مرة فى الدقيقة، الموت الذى يرواغ فى عبثية دائمة، والشعور بالذنب تجاه والدى ووالدتى اللذين لم يشعرا ببهجة العيد - بسببى - ولكن أين هو العيد، ومريم غائبة هناك، خلف الجدران العالية، هل شعرت أسرتها بالعيد ؟ وكم أسرة فى مصر كلها لم تشعر بهذا العيد ؟ حتى ولو لم يكن لها أحد خلف الجدران، لقد سرق السادات فرحة الجميع، سرق منهم عيدهم، سرق أفراحهم الصغيرة، وراح يوزع السلام - الوهم - يوزع دماء موتانا على قردة تل أبيب - كما تقول مريم - صوت نهنهات أمى يصلنى واضحاً، مسبحة أبى تصدر صوتها بنفس الحميمية التى ألفها، ألم خفيف فى ذراعى، أعتقد أن أحدهم يغرس الإبرة فى الوريد الضعيف، مريم تصرخ فى ثورة:

«لقد باع البلد، سلمنا لهم دون مقابل، أضاعنا و أضاع تاريخ النضال».

يقول الدكتور باسيلى بهدوئه المعهود:

- النزيف ليس شديداً، سيتوقف.. لا تقلقوا.

صوت أبى يأتينى مبللا باليأس:

- لقد طالت إغماءته.

يرد الدكتور باسيلى بثقة:

- سيفيق حالاً.. لا تقلق.

خطواته تعبر الغرفة إلى الخارج فى رصانة، حبات المسبحة تجرى خلف بعضها، مريم يطاردها طائر الرخ، تجرى وحيدة فى الصحراء مترامية الأطراف، أقدامها الصغيرة تغوص فى الرمال الساخنة، فتقفز كالسنجاب من شدة الألم، طائر الرخ يحوم حول المكان، يأتيها من كل اتجاه، تعجبه اللعبة يفرح بالتسلية، يظل خلف مريم لا يأخذها ولا يتركها، مريم تواصل الجرى بإصرار وعناد،

تواصل المراوغة، تبحث عن مكان والصحراء شاسعة يحاصرها طائر الرخ وهى تجرى، لا هو يمل ولا هى تستسلم، والليل يعقبه النهار، والصحراء تمتد، تتلفت مريم حولها، تضع يدها على فمها على شكل بوق وتنادى، أسمع اسمى آتيا من خلف دروب الصحراء، أو من أعماق بئر عميقة، اسمى يتردد بوضوح، أفتح عينى فى بطء، وجه حامد يكاد يلتصق بوجهى، تغمرنى ابتسامته الحانية، أتذكر مريم، وأتذكر طائر الرخ العنيد. أشعر بالعطش، من منا الذى كان يجرى فى الصحراء.. أنا أم هى ؟ وإذا كنت أشعر بكل هذا العطش، فكيف تكون هى وهى وحيدة، تصارع الطائر الخرافى وحدها، أشير إلى حلقى، ينظر إلىّ حامد مستفسراً يخرج صوتى ضعيفاً، مخذولاً:

- ماء.. أريد ماء.

تسرع أمى التى تسمعنى رغم ضعف صوتى، أسمع صوت الماء وهو يكسر الصمت داخل الكوب الزجاجى الموضوع على إفريز النافذة، تمسك أمى بالكوب بين أصابعها، الكوب يرتعش، أو يدها التى ترتعش، لا أدرى، تقترب منى، تحتضننى بذراعها لترفع رأسى، تقرب الكوب من فمى لأروى العطش:

- ماذا تفعلون ؟

جاء الصوت صارخاً من عند الباب، إنها سماح ممرضتى الأثيرة والتى تشبه مريم كثيراً، قطعت سماح المسافة من الباب حتى السرير فى لحظة خاطفة وانتزعت كوب الماء من يد أمى وهى تقول:

- من قال لكم اسقوه ؟

قال حامد:

- إنه يشعر بالعطش.

وضعت الكوب على المائدة الصغيرة بجوار السرير وقالت:

- إنه لا يجب أن يشرب.

شعرتُ باليأس وازدادت حدة العطش، نظرت أمى إلىّ تعلن قلة حيلتها، إلا أن

حامد واصل أسئلته بفضول:

ـ ولكن لماذا ؟

التفتت إليه قائلة:

ـ لأن الماء خطر على النزيف، عندما يتوقف النزيف سنسمح له فى البداية بشرب اللبن والقليل من الماء ولكن كل هذا حسب تعليمات الطبيب.

اتجهت إلى والدى وقدمت له ورقة صغيرة وقالت:

ـ هذه الحقن غير متوفرة بالمستشفى ونحن نحتاجها.

اختطف حامد الورقة من يد أبى وأسرع بها خارجاً وهو يقول:

ـ سأحضرها بسرعة.

وضعت أمى رأسى على الوسادة من جديد، ومن جديد راح يكتنفنى الضباب، وراحت مريم تصارع طائر الرخ .

٦

*** نشرة أخبار الحادية عشرة فى إذاعة جمهورية مصر العربية من القاهرة**

بليكس فى تقريره لمجلس الأمن:

تدمير العراق لصواريخ صمود، خطوة مهمة جداً

روسيا تهدد بالفيتو.. وترسل سفناً للمحيط الهندى

ينتشلنى صوت المذياع من قبر ذكرياتى المتلاحقة، ذكرياتى التى تقتلنى كل لحظة، التى تمنع عن عينى النوم كما تمنعه هذه الأخبار التى ترددها الإذاعات فى كل ساعة، أخبار الحرب القادمة لا محالة، بغداد التى تستعد للحصار، صحراء العراق التى ستدهمها أقدام الجنود الأمريكان، حلقى تجتاحه المرارة، يزداد عطشاً، حلقى صحراء مترامية الأطراف، صحراء لم يبللها ماء المطر منذ آلاف السنين، صحراء يقتلها العطش.

لقد اعتاد حامد أن يتأخر عنى كل ليلة، أمى تضطر للانصراف بينما أبقى وحدى حتى يأتينى حامد فى وقت متأخر، لا.. لا أكون وحدى تماماً، يأتينى غباشى، بينما تجرجر أمى قدميها الواهنتين، كأنه يعرف موعد انصرافها، أو كأنها تعرف موعد قدومه، ما إن تخرج أمى من باب الغرفة حتى يجلس غباشى على السرير المقابل، ويشرع فى تدخين سجائره، يجلس صامتاً كأحد تماثيل الفراعنة العظام، ينظر لى وللسقف حيث تقبع مروحة قذرة التفت حول ريشاتها الثلاث أكوام الذباب وخيوط العنكبوت، يقول:

– هى لا تعمل، ولا حتى فى الصيف.

ثم يصمت ثانية كأنه ندم أن خدش قدسية الصمت، ينفث دخان سيجارته بتلذذ، رغم صمته الطويل إلا أن وجوده يبدد وحشة الغرفة وقسوة المرض، وكأنه يقرأ أفكارى، يقول ببطء:

ـ لن يتأخر حامد إن كنت ترغب أغير محطة الراديو.

قلت:

ـ كيف عرفت أنه لن يتأخر ؟

لم يرد، عاد لصمته مرة أخرى، لقد اعتدت هذا الصمت، لم يعد يثير غضبى أو يضايقنى، قلت بعد فترة:

ـ أنت لست من القاهرة يا غباشى، لهجتك تقول ذلك.

شعرت ببرودة نظراته، لم يتحرك، والدخان يخرج من فمه فى بطء، اجتاحتنى رعشة باردة، انتابنى شعور بالخوف للحظة واحدة، خيل لى أنه يبتسم، لا أدرى، ربما ابتسم، وربما أتوهم ذلك، راح يسحب الأنفاس من السيجارة بهدوء، وينفث دخانها بهدوء، شعرت و كأنه ينتقم منها، أو ينتقم من نفسه فيها، السيجارة تموت فى يده ببطء قاتل، وغباشى باق فى صمته وعيناه تدوران بينى وبين المروحة الثابتة.

كان المثير فى غباشى ـ والمخيف أيضا ـ هو ما سمعته من بعض الممرضات، حيث كان آخر الليل يدخل المشرحة ويغلقها وينام فى حضن إحدى الجثث، فإن لم تكن هناك جثة فتح أحد أدراج ثلاجة الموتى الضخمة ونام فيه حتى الصباح.

كل العاملين فى المستشفى يعلمون عنه هذا، ولا يعارضه أحد، حتى وهم يقرأون الموت فى عينيه، يؤثرون الصمت خوفا.. وإيثاراً للسلامة.

غباشى لا يزور أحدا من المرضى، وزبائنه جميعهم من الموتى، لا أدرى حتى الآن كيف جاء إلى غرفتى وصار أنيسى وصرت أرتاح إليه.

تحرك غباشى أخيرا، اعتقدت أنه سينصرف مبكرا هذه الليلة، إلا أنه جذب المقعد الوحيد من آخر الغرفة وقرّبه من فراشى وجلس عليه، ثم اقترب بوجهه حتى كاد يلامس وجهى، فتح عينيه عن آخرها، رأيت فيهما الموت الذى يحكون عنه، لكنى لم أرَ الموت فحسب، لقد رأيت الحياة أيضا، نعم.. رأيت الحياة، الحقول والأنهار والجبال، رأيت البيوت والشوارع وأعمدة النور، رأيت الدنيا فى عينيه وكأنهما تدخران أسرار الروح، وبهجة الأسماك فى المحيطات البعيدة.

أخيراً.. جاءنى صوته العميق:

ـ الحكاية طويلة.. طويلة يا أستاذ.

غباشي

حاشـية :

بل أخشى أن نصل قبل الأوان، فإن نفسى توجس، كأن بعض العواقب التى لا تزال فى ضمير النجوم، ستبدأ فى قسوة أيام مروعة.

روميو وجولييت

شكسبير

١

لم أكن وحدى الذى ضرب الأرض بكل قوته وأثار ذرات الرمال حول الأقدام، بل كنا عشرات..... مئات... ألوفا، لم أكن وحدى الذى عبر القناة، لكن كنت وحدى الذى رأى الملائكة تطوف حول الرجال، كنت وحدى الذى رأى الأجنحة البيضاء وهى ترفرف فوقنا، شعرت ساعتها أن النصر قريب، قريب جدا، أقرب مما يتصور أصدقائى الذين بجوارى، حاملين أسلحتهم وصناديق الذخيرة وكيس البلح وزمزمية الماء، حتى إذا غربت الشمس، أفطرنا على أصوات القنابل، وصراخ الطائرات، وابتسامات الملائكة، وقبضة الموت التى تحاصرنا من كل جانب، لم أشعر بالخوف لحظة واحدة، كنت فى القارب أشعر أننى فى نزهة، بجوارى جميلة، جميلة ابنة عمى، وقد وعدنى عمى بها بعد انتهاء التجنيد فى الجيش، الجيش الذى طال، وجميلة التى ازدادت جمالاً مع الأيام، وزاد حبى لها فى البعد.

لم أشعر أننى أحارب إلا عندما وضعت أقدامى على أرض سيناء، شعرت وكأن الأرض تحتضن قدمى، جعلت سلاحى فى وضع الاستعداد، بينما بصرى يتعلق بالعلم المصرى وهو يرفرف فوق أعلى نقطة فى خط بارليف تراها عينى من موقعى بجوار القناة، أنا لا أملك الكثير من ذكريات الحرب لا أذكر سوى النيران التى كنا نطلقها فى كل اتجاه والنيران التى كانت تحيطنا من كل صوب والنيران التى التهمت أكثر الأصدقاء وأخلصهم، لا أملك هذه الذكريات، ولا أريد أن أملكها، لأنها تورثنى الحزن الذى لا يضيع، حتى الملائكة التى تحلق من حولى، نسيت شكلها، نسيت أننى وحدى الذى رأيتها، الحرب سيئة، حتى لو كنت المنتصر، لا يذوق حلاوة النصر إلا القادة الجالسون على مكاتبهم فى غرفهم المكيفة، ولا يذوق نارها إلا البسطاء أمثالي، الجنود أبناء الفلاحين الغلابة، الذين يكملون غذاءهم ماء وعشاءهم نوما، ولا يحلمون إلا براحة الجسد بعد عناء طويل مع الأرض والشمس والحيوانات الطيبة الوديعة.

لقد خرجت عن الموضوع، هكذا أنا دائما، لا أبدأ فى حكاية حتى أدخل فى غيرها، اعذرنى.. أعود إلى الحرب، الحرب.. هذه الكلمة التى تذوقت معناها قطرة فقطرة، تذوقتها مع كل خطوة فوق الرمال، ونحن نصعد المانع الترابى الذى يقف أمامنا كحائط مستقيم، ونحن نحرر تبّة الشجرة، هل تعرف هذا الموقع ؟ لا أعتقد، لقد كنت صغيرا أيام الحرب، هذا الموقع كان يكشف للعدو كل مواقعنا، وكان يضربنا بقسوة ووحشية، حتى صدرت الأوامر بالاستيلاء عليه، كان هذا مستحيلا، هل تعرف لماذا ؟ لا لشىء إلا لأننا فقدنا كل ذخيرتنا، لم يتبق معنا إلا بنادقنا الفارغة فى مقدمتها السونكى، ليس معنا فى هذه الحرب إلا السلاح الأبيض، علينا أن نحارب بالسكاكين فرقة محصنة بموقعها وأسلحتها، جنون... أليس كذلك ؟ لكننا فعلناها، نفذنا الأمر، وحصلنا على الموقع، وفقدت الكثير من أصدقائى، كان الموت يحوم حولى يخطف من أحب، ويتركنى أشاهدهم وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة، بينما تختلط دماؤهم بالرمال العطشى التى تشربها أو تتفاعل معها فتعطى للأرض لونا قاتلا، لونا أكرهه، لأنه حمل معه أرواح من أحب.

زارنا الرئيس السادات، قال أننا أبطال، وزع النياشين والهدايا والمكافآت، فرح القادة، وبقى الحزن فى عيون الأرامل والأمهات، والأطفال اليتامى، ألم أقل لك، إنها الحرب، صدقتى يا أستاذ.. أنا لا أحب أن أتحدث عنها.

٢

لم يترك لنا أبى ميراثا عظيما، ذهب وخلّف لنا قطعة أرض صغيرة، كان نصيبى منها بعد قسمتها بينى وأخى وشقيقتى المتزوجة، ثلاثة قراريط، تصور يا أستاذ،، ثلاثة قراريط ؟ ما تفعل؟ وأى محصول تقدم هذه المساحة الضئيلة ؟ لكن قلبى كان مفعما بالحماس، وبالرغبة فى العمل، وزراعة المستحيل، وحب جميلة، إن النظر فى عينيها يشعل الجمرات فى صدرى، والرغبة فى أن تجمعنا دار واحدة كانت تلهب قدرتى، وتجعلنى أعاند الفقر والظروف والأرض الضيقة حتى يتحقق الأمل.

سعيت لدى الكبار، حفيت قدماى خلفهم، حتى فلح المسعى، وكان أول عهدى بالحكومة عملت بالوحدة الصحية كواحد من مخلفات الحرب الذين عينتهم الحكومة، كنت سعيدا بعملى، وبدأت أدخر القروش القليلة وخير الأرض انتظارا لليوم الموعود.

يقول عنى سعدون (الباشتمرجى) إننى ابن فقر، وأفر من الخير فرارى من الأسد، لكن هذا غير صحيح يا أستاذ، صدقنى، إننى أريد الخير الحلال، الحلال وحده، حتى نأكل أنا وجميلة بما يرضى الله، لكنهم كانوا يفعلون الكثير وأنا لا أخاف شيئا قدر خوفى من الحرام، كان أبى رحمه الله يقول دائما تحرى الحلال، ويستشهد بحديث الرسول «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة» فكيف يا أستاذ يدعوننى إلى النار وأستجيب لهم؟!

كان «الباشتمرجى» بالتواطؤ مع «الباش حكيم» يفعلان أى شىء ينهبان به جيوب الخلق، فمن تزوير لشهادات الميلاد، وتسنين الصغيرات ليتزوجن «ويا بخت من وفق راسين فى الحلال» على رأى مساعد، وتبديد عهدة المكان، وغيرها من الجرائم، كل هذا كوم والمصيبة الأخرى كوم آخر، تصور يا أستاذ يقولون للمرضى الفقراء كذباً أن الوحدة لا يوجد بها علاج، بينما يبيعونه للقادرين من أهل البلد، أو يقدمونه هدايا لهم منتظرين المقابل بحياء التماسيح ولؤم الضباع،

وأحيانا كان يصر «الباش حكيم» على أخذ مبلغ من المرضى مقابل الكشف عليهم بحجة أن مرتب الحكومة لا يكفيه (عيش حاف) تصور يا أستاذ؟ ولكن لماذا أتعبك بشرح كل هذه التفاصيل، أنت تقيم بيننا هنا فى المستشفى ولابد أنك سمعت أشياء كهذه أو أكثر، إن الوحدة الصحية التى كنت أعمل بها هى نموذج صغير من هذا المستشفى، بكل ما فيه من فساد وضياع لحقوق الفقراء والعاملين به من الشرفاء ما علينا.....

ظللت أعاند رياح الحرام مستعينا بالثلاثة قراريط، وظلت الرياح تحاربنى لا أنتصر عليها ولا تتمكن منى، كنا كنِدّين فى حلقات التحطيب أيقنا أن الصراع بينهما سيطول دون أن يُحرِز أحدهما فرصة على غريمه، وأيقنا أيضا أن صراعهما لا نهاية له إلا باختفاء أحدهما، وكنت وحيداً لكنهم لا يجدون على سبيلا لإبعادى عن المكان، فظل الصراع بيننا قائما حتى آخر لحظة، وحتى أخر نفس كما هو الآن، حتى بعد تغيير مكان عملى، ويبدو أنه سيظل.

٣

أحدثك يا أستاذ عن ملاكى الجميل، عن جميلة التى تعشقها الشمس والنجوم ويهواها القمر، التى تغسل بابتسامتها زرع الحقول وشواشى الشجر، جميلة.. يغار منها سعف النخيل، وتعاكسها أسماك الجداول، وتغار منها حوريات النهر وفاتنات الجن وصبايا البلد، إنها جميلة.. ابنة عمى، التى اصطفتنى من بين كل الرجال، اختصتنى وحدى بالرضا دون كل شباب العائلة الأكثر منى مالا وأرضا، منحتنى ضحكاتها، فضحكت لى الدنيا، وسكنت الجنة فوق الأرض، كيف أصفها لك يا أستاذ، كيف اصف عينيها اللتين بلون البرسيم، كيف أصف شعرها الليلى الكثيف الذى يشبه ليل الفقراء، ليلنا بونسه وصخَبه النبيل، وجسدها الأطرى من عود الخس الندى، وصوتها الأجمل من موسيقى عبد الوهاب وصوت عبد الباسط وحس أسمهان، كيف أصف لك يا أستاذ وأنا عاجز أمام أجمل البنات، أقول لك، هل سبق لك أن رأيت ملاكا ؟ هى ملاكى أنا وحدى، هى حبيبتى وحلمى وأغنيات صبباى، لا تطلب منى أن أصف لك ما لا يوصف، وأقول عنها كلاما لم يخلق بعد.

تمر الليالى ثقيلة والنهارات متعبة، و الأيام كما الأحمال على كتفى، كل يوم يمر دون جميلة أسقطه من حساباتى، هو ليس من أيامى ولا من عمرى، كنت أعمل كالثور فى الساقية، عفوا يا أستاذ، لكن هذا كان حالى، فى الصباح فى الوحدة الصحية، وبعد الظهر أرعى قطعة الأرض الصغيرة، وإن لم يكن لدى عمل بها عملت فى أى أرض أجيرا لدى الكثيرين، لدى من يطلبنى، كنت أجمع المال من أى مكان وأى عمل، كنت أمضغ الأيام حتى تنقضى، ويكتمل عشنا أنا وجميلة، واقتربت الساعة، وامتلأ جيبى بالجنيهات الكبيرة، ورممت البيت، أعدت ملاطته بالطين والتبن بنفسى، واستأجرت ماكينة جير ولونته بنفسى، فعلت كل شىء فى البيت بنفسى حتى أشعر أن يدى على كل جدار وكل سقف وكل باب، إنه بيت جميلة، إنه البيت الوحيد الذى يستحق العناء، الوحيد الذى يستحق أن يكون جميلا ليليق بسكنى الملائكة، لترفرف جميلة فى أنحائه ناثرة نورها فى أرجائه.

اقتربت الأيام، وامتلأت الحياة بالبهجة، وشعرت أن روحى ترفرف بأجنحتها فى طرقات الجنة، أخيرا يا جميلة، يا حلم العمر وعمرا من الأحلام التى ظننت إنها مستحيلة، ستضعين يدك فى يدى ونسير الهوينى، وتدق المزاهر، وتزغرد الجارات والحبيبات، ترقص الصبايا، ويحطب الشباب، وتتمايل خيول ابن العمدة الذى جاء ليجامل عمى، وتملأ آذاننا أغنيات غنيناها لغيرنا وتمنيناها لأنفسنا، هى لنا الآن يا جميلة، تقدمى معى نطوف شوارع القرية، وسط الأحبة والحاسدين، وسط العيون السعيدة والحاقدة، تقدمى.. تقدمى يا جميلة، ها هى دارك الجديدة، بنيتها لك بيدى طوبة طوبة كما يقولون، تقدمى.. تقدمى يا جميلة، ادخلى برجلك اليمنى.

٤

لم أكن أعلم أنه ليس للسعادة سقف، ولا للفرح حدود، لم أكن أعلم أن الصباح جميل إلى هذا الحد، ظهر لى كل هذا وعلمته منذ بزوغ أول فجر علىّ وأنا بين أحضان جميلة، لقد حوّلت القحط إلى ينابيع من الخضرة والرواء، حوّلت روحى المجدبة إلى واحة غناء، تطير فيها العصافير وتشدو بأهازيجها بحب وسعادة، من حوّلنى أنا من العدم إلى الوجود، هكذا هى جميلة، تطرح الخير حيث حلت، وتنشر البشر حيث قامت، وتغرد الدنيا حولها، كان صباحاً جميلا هو الصباح الأول، وكانت صباحات جميلة هى الصباحات التالية، وكلها كانت صباحا أول، كل أيامنا يوم واحد متصلا مضيئ بإشراقة وجهها الناعمة، حتى أماسينا كانت كلها قمرية وإن غاب القمر، أى قمر هذا الذى أفكر فيه ومعى جميلة، تطرح عباءة شعرها على كتفى، وتوسدنى برموشها وتهدهدنى بكفها الطرى، تقبلنى بين لحظة وأخرى بينما أضع رأسى على فخذها كعصفور يلوذ بحضن أمه، وفطيم لا يغفو إلا على الحكايات، ولم تكن حكايات جميلة تنفد قط، دائما لديها جديد لليالى الجديدة، حتى إذا ما هدأت روحى، واستكان جسدى من كد النهار وشقاء العيش، يفور دمى وتنتفض عروقى وتشعر بى جميلة فتنهض لتستحم وتتعطر بعطورها الفواحة التى تقتحم أنفى قبل أن تهلّ علىّ مقتحمة روحى قبل أن تقتحم المكان، فتأتى ملائكية الطلة، خفيفة الهبوب، مرتدية قميصها القصير الشفاف الذى يظهر فخذيها وكتفيها العاريتين، بينما يطل منه أخدود صدرها الذى ما أن أراه حتى أجن وأفقد كل صواب، جسد فائر وابتسامة هادئة، ابتسامة أمومية تعلق بالذاكرة، تداعبنى وكأننى طفلها الصغير، تتباطأ فى خطوها، يهتز جسدها يمنة ويسرة، تهتز الأرض، وتنشق الأسقف، وتنهدم أجزائى، فلا أعى شيئا إلا حضورها الطاغى، ورائحتها التى تعبق المكان.

– أترغب فى شىء؟

ياله من سؤال تحريضى ـ كما كان يقول الصحفى الذى زارنا على الجبهة ـ جميلة فى هذه اللحظات تشبه بطلات القصص التى أحب أن أقرأها، لكنها أروع

منهن جميعا، فما من امرأة واحدة تصلح أن تكون زوجة وعشيقة وأختاً وأماً، وأن تخلص فى كل هذه الأشياء، جميلة وحدها استطاعت أن تكون كل هؤلاء، استطاعت أن تقتلعنى من جذورى، وتنبتنى فى أرضها لأنمو من جديد.

- أترغب فى شىء؟

تقتلنى نظراتها الجائعة، دمى يغلى فى عروقى، لا أشعر بنفسى، لا أذكر المقدمات، لا أذكر إلا وأننا التحمنا واتحدنا،وتشبع عَرَقى بِعَرَقِها، وانمحى جسدها فى جسدى، أدخلها أو تدخلنى لا فرق، لا أذكر شيئا قبل رعشتها القوية وانتفاضتى فوقها، تضغط على شفتها من الألم، وتفيض عيناها باللذة والنشوة، يتقوس ظهرى وتنتفض أوردتى وأرشف لذتى من رحيقها، أحاول النهوض..تحتضن ظهرى بساقيها، لا أقوى على المقاومة، أسقط فوقها بجسدى القوى، أتنفس بسرعة، جسدى يعلو ويهبط، أشفق عليها وأحاول النهوض، تتمسك بى شارعة أصابعها فى ظهرى ومحتضنة إياى مرة أخرى بساقيها بقوة.

- لا تذهب.

أقبلها فى نهم، وأضمها إلىَّ بحنان، نغفو ونصحو ونحن على حالنا لا نغيره وإن تعبنا، لا أدرى متى تسحّبت من تحتى، لا أشعر إلا بأناملها الرقيقة تحنو على وجهى لتوقظنى حتى أستحم وأدرك صلاة الفجر.

- لقد سخنت الماء، كل شىء جاهز فى الحمام، هيا لأحميك بيدى.

***

هل جربت أن ترضى عن الدنيا، تصالحها وتسامحها وتصفح عن خطاياها التى ارتكبتها بحقك ؟ هل جربت أن تكون سعيدا ؟ إن السعادة لا تمنح، ولكنها تصنع، ولقد صنعت لى جميلة هذه السعادة التى أتحدث عنها، أخذتنى معها إلى الجنة، وغمرتنى فى أنهارها، وأغرقتنى حتى أننى لا أرغب فى النجاة، عشت لحظات السعادة واللذة، عشت الحياة كما ينبغى أن تُعاش، أسابيع قليلة وهمست جميلة فى أذنى إنها حامل، ياه.. حامل ؟

كم أحبك يا جميلة، أحب عينيك وهما تفضحان فرحتهما وتكشفان أسرارك الصغيرة، أحب حياك الطفولى وأنت تقولينها لى بمشقة ـ حامل ـ أحب تفاصيلك الصغيرة ومرحك الأنثوى ودنوك منى متى شئتِ وكأنى أنا من يشأ، فاقتربى، دعينى ألجُكِ، أو أدخلينى، يانبع السعادة والعطاء.

***

مرت الشهور بطيئة.. سريعة، لا أدرى، لم أكن أحسب الأيام إلا انتظارا للمولود القادم الذى سيملأ صياحه وصراخه فراغ البيت، ابنتنا أو ابننا القادم الذى سيقتل الصمت ويملأ الفراغ وسيشاركنا ضحكنا فى الليل ولعبنا فى النهار، ثالثنا، وحب جديد منتظر دائما تنظر جميلة إلى بطنها، وتداعب الكرة الصغيرة تحت الثياب وتقول: ـ متى ستأتى؟ كنت أضحك فى نفسى وأفرح وأشدو وأقول لنفسى دائما:

ـ متى سيأتى؟

وأتى.. جاء اليوم الذى انتظرناه طويلاً، يوما شتويا باردا، صقيعه يكسّر العظام ويكرمش الجلد ويخرس الكلاب خلف الأبواب، وصرخت جميلة، لا أعتقد أنه قد انتصف الليل، صرخت، أيقظتها ضربة وحشية فى ظهرها لم تتحملها، استيقظت فزعا، صرخت ثانية.

ـ خير.

ـ أنا ألد.

ـ الآن؟

ـ وهل له وقت؟

ارتديت جلبابى الصوفى ووضعت على كتفى عباءة أبى وأدخلت قدمى فى حذائى القديم وشرعت خارجا.

ـ غباشى.

ـ عيون غباشى.

ـ لا تتأخر.

قالتها بعينيها قبل أن ترددها على سمعى، سمعتها يا حبيبتى، وسمعها قلبى، لا تخافى، سأعود أسرع من البرق الذى نراه من شقوق النافذة المغلقة. وخرجت.. تلقتنى السماء بغضبها، المطر ينهمر والشوارع تحوّلت إلى بركة كبيرة من الطين، الرعد يدوّى بلا انقطاع، يضئ لى البرق طريقى، بيت أم خشبة الداية ليس بعيداً، ليس بعيداً .

أعود حاملها فوق كتفى، تجاوزت السبعين، أنهكتها السنون لكنها ما تزال قادرة على استخلاص أبنائنا من أرحام أمهاتهم، أزحت الباب بقدمى، تسرّب الماء إلى الداخل، باب غرفة النوم مفتوح، جميلة راقدة على سريرها لا تصرخ، لا تتحرك، بقعة دم كبيرة تغطى السرير، الدم يتقاطر على الأرض، وضعت أم خشبية على الأرض، أسرعت إلى جميلة، وجهها ينطق بالألم، عيناها تنظران إلى البعيد.

- جميلة

لا ترد، لا تنظر إلىّ، لأول مرة منذ عرفتها لا ترد علىّ، لا تنظر نحوى.

- جميلة.

يحيطها دمها القانى، له رائحة كريهة، هززتها، حاولت أن أحركها من مكانها، لم تتحرك، لم تطاوعنى جميلة، انتبهت الى وجود طفلتها، طفلة رائعة الجمال، مثل أمها، لمستها، لم تصرخ، لم تتألم، لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من الوقت حتى أعلم أن جميلة ماتت، وإنها بخلت علىّ حتى بابنتها، ماتت جميلة وأخذتها معها، لكن لا.. لا .. جميلة لا تفعل بى هذا، جميلة لم تمت، جميلة لا تموت، جميلة ستبقى لتنتظرنى فى البيت، ترسم لى ضحكتها على الجدران، وتغدق على مرحها، وتقص لى حكاياتها، وتعلمنى كيف تكون السعادة، لا..

جميلة لا تموت، الفرحة لا تموت، السعادة لا تموت، الحياة لا تموت، صعدت إلى السرير واحتضنت جميلة الراقدة فوق دمائها ونمت.

٥

أنا لا تعنينى توصيفات الأطباء وشروحهم، يقولون إنها نزفت كثيرا، وإن طفلتها اختنقت بحبلها السرى بعد ولادتها، وقالوا أيضا كلاماً كثيرا عن دمها ومكوناته، كل هذا لا يعنينى، فجميلة لم تمرض قط، مر حملها عليها خفيفا، لم تعانِ آلام الحمل، فكيف يحدث لها ما يقولون، نعم.. إن حديثهم لا يعنينى، ولا أصدق أيضا أنها ماتت، لا أصدق صراخ النسوة وبكاء الأطفال، الرجال المتجهمون أمام بيتى فى انتظار نعشها، لا أصدق هذا النعش الذى يحمل بداخله جسد حبيبتى تحتضن مولودتها، دون أن تنظر لى بعينها وترنو إلىّ بوجهها، وتحن على بابتسامتها، لا أصدق دموع كل أهل القرية التى عبرت الطرقات الضيقة والبيوت الواطئة وروت كل أراضى البلد وأغرقتنى بسخونتها.

هذه جميلة.. لماذا يذهبون بها بعيداً، لماذا تطاوعهم ؟ منذ متى تطيعين أحداً غيرى يا جميلة ؟ أنا لا أصدق هذا، ولا أصدق ديوان العائلة الذى افتتح ليأخذوا فيه عزاءها، العزاء لمن مات، وجميلة لم تمت، كاذب من قال إنها ماتت، كاذب كلام الأطباء وتقاريرهم و تصاريحهم، كاذب بكاء النسوة وصراخ الأطفال وحزن الرجال ودمع العيون ونعش جميلة.

لماذا تبحثون عنى، أنا أكرهكم جميعا، لماذا تبحثون عنى، لا أريدكم ولا أريد الدنيا التى تعشقونها، لا أريد كذبكم ولا كذبها عليكم، لا أريد سوى جميلة، خلونى وجميلة، ابتعدوا عنى، ماذا أمثل لكم لتشقّوا على أنفسكم وتبذلوا كل هذا الجهد فى البحث عنى، تحبوننى أم تخشون على أنفسكم من سياط الألسنة، أنا لا أخشى شيئا ما دمت بجوار جميلة، كرهت هذا الولد اللعين الذى جرى إليكم وأخبركم أنه رأى قبر جميلة مفتوحا، هرعت إلىّ البلدة بأكملها، نزل الحفار حاملا مصباحه العليل، وجدنى نائما فى حضن جميلة، أطلق الشهادتين، حاول انتزاعى من حضن جميلة، يقول إن ما أفعله حرام، حرام ؟! إنها زوجتى، وهى لم تمت، بل خُيّل لكم، دعونى وجميلة، اتركونى، يستغيث الرجل بمن هم خارج المقبرة،

يهبط من واتته الشجاعة، يخرجوننى بقوتهم إلى نهار ملبد بالغيوم، وأرض طينية تحبل كل يوم من ماء المطر، أخرجونى وتركوا جميلة وحدها، لا.. لا.. اتركونى.

نسيت أن أقول لكم:

- إن جميلة تخاف أن تنام وحدها.

٦

غباشى.. لا تتأخر.

يقول الأطباء إنها نزفت كثيرا، إذن فقد تأخرتُ يا جميلة، تأخرتُ دون أن أدرى.

- لا تتأخر.

لسبعة أيام كاملة استمر المطر، كأن السماء تشاطرنى حزنى لفقدها، انهمرت دموع السماء تغسل وجهى وتغسلنى بينما لم يمنعنى المطر وقسوة البرد والتراب المعبق بدموعى ودموع السماء متحولاً إلى طين بارد، لم يمنعنى كل هذا من المكوث ليل نهار أمام باب قبرها، بعد أن أغلقوه بالإسمنت والجبس ليمنعونى من الدخول إليها بعدما تكررت زياراتى لها داخل القبر، يقولون إننى سأجن، وما العقل بدون جميلة ؟

تقدم عمى – والد جميلة – بطلب لنقلى إلى مكان بعيد، حتى أبتعد عنها وعن ذكرياتى، لا يعلمون أن الذكريات حفرت داخلنا قبل أن تكتب على جدران الأمكنة وروائح الأزمنة، استطاعوا إبعادى عن المكان، إلا أن المكان حل فىّ ورحل معى أينما رحلت، عملى الجديد بالمستشفى العام، حارس المشرحة ياله من عمل رفضه قبلى الكثيرون، وافقت فوراً، استلمت المفاتيح، لِمَ أتعجل ؟ سأكتشف كل شئ فى حينه، لقد بدأت عينى عملها أولاً باستكشاف البشر، إن أهل العاصمة يختلفون عن أهلى، وجوههم لامعة، وملابسهم نظيفة، لكنى أستشعر منهم العداوة، جهامة واضحة، واستعدادا للمواجهة، متعجلون فى حركاتهم، ينظرون إلى الساعات كثيرا، لم يطمئن قلبى، ولكن لا بأس، المستشفى كبير جدا نسبة للوحدة الصغيرة التى كنت أعمل بها، مثلها عشرات المرات تقريبا، النظر إليها من بعيد مثير للخوف، ومن قريب مثير للشفقة، أنا لا أتحمل أن أرى مريضاً، أكره الألم، لا بد أن جميلة تألمت كثيرا، كيف كان ألمها ؟ ما هو شعورها؟ ليتنى أنا يا جميلة.

أشار لى المعاون «الذى سأكتشف فيما بعد أنه لص» بأن هناك جثة يجب أن

تدخل المشرحة، إذن فقد غابت حياة مع مغيب شمس اليوم الأول لى بداخل المستشفى، أخرجت المفاتيح وفتحت الباب، تقدمت، وإذا بثلاجة ضخمة بها العديد من الأدراج الأفقية، دخل المرضان، أشارا لى، فتحت أحد الأدراج، به جثة، فتحت الثانى، جثة أخرى، العديد من الجثث، لا يوجد مكان، رفعا الجسد ووضعاه على منضدة مرتفعة وخرجا، تركانى وحدى مع كل هذه الجثث، لا أخفى عليك، شعرت بالخوف لأول وهلة، لكنى أيضا انتابنى الفضول، أريد أن أرى هذا الوجه الميت الذى فارق الحياة منذ قليل ولم تزل دماؤه دافئة، واربت الباب، اقتربت من الجسد المسجى، كشفت الوجه، يا الله.. إنها أنثى، لا.. لا، إنها هى، جميلة، إنها جميلة، فتحت الأدراج، كشفت الوجوه، جميلة.. جميلة، كل وجه أراه وجه جميلة، حتى الرجال صار لهم وجه جميلة، تركت الأدراج نصف مفتوحة، إن الغرفة كلها باردة، لا بأس، اقتربت من المنضدة، اعتليتها، وضعت رأسى بجوار رأس جميلة ونمت، نمت بعمق حتى الصباح، أيقظنى فى الصباح صوتهم المرتفع وهم يشيرون إلىّ ويتهمونني بالجنون، ما إن رفعت رأسى حتى تقهقروا بخوف، رأيت المدير «القصير المكير الذى علمت فيما بعد أنه اللص الكبير» والمعاون «اللص أيضا» وعمال البوابة «اللصوص الصغار» سألنى المدير ماذا تفعل ؟ قال كلاما كثيرا، لم أسمعه، لم أرغب فى سماعه، ثم خرجوا جميعا وأغلقوا الباب.

نظرت من جديد إلى الجسد الذى بجوارى، إنها هى جميلة، لا شك أنها جميلة، هل تصدقنى يا أستاذ؟

لقد ماتت جميلة فى ليلة شتوية ممطرة، ما زال الشتاء يسكن قلبى وما زالت السماء تمطر حتى اليوم .

التحولات
«أوراق المستشفى العام»

حاشـــــية :

قال الغراب: قد عزمت أن أذهب إلى الثعبان الأسود إذا نام، فأنقر عينيه فأفقأهما، لعلى أستريح منه.

قال ابن آوى: بئس الحيلة التى احتلت، فالتمس أمرا تصيب فيه بغيتك من الأسود من غير أن تغرر بنفسك وتخاطر بها.

كليلة ودمنة

بيديا

أول الليل

أشعر أنها النهاية، لكنها تراوغنى قليلا، كعيادة الموت، إما أن يفاجئك فتشعر بالغدر أثناء السقوط الأخير، أو يراوغك، فتتمناه ولا يجىء، وهو يفعل معى فعلته الثانية، نعم.. أشعر أنها النهاية، ربما لأننى أتذكر من رحلوا ويأتوننى كثيرا مناماً ويقظة.

كما تعاودنى أيامى فى الجامعة، ياه.. إنه زمن بعيد، أواخر السبعينيات، جامعة القاهرة... كلية الآداب، الأمسيات الأدبية، واللقاءات مع كبار الأدباء، الجلوس ليلاً فى زهرة البستان، (على هامش الجلسة بالطبع)، التسكع فى الشوارع الخلفية مع مريم، نعم.. مريم الحب الأول.. والحب الأخير، الهوى الأبدى الذى سكن الضلوع، العشق الذى تملك القلب وأسره، اختلاجة القلب عندما قالت مريم لأول مرة.. أحبك، رعشة الكف حينما لامست لأول مرة أصابعها، صحوة الحياة حينما تضحك بصدق عيناها.

لم يكن هناك ما يثير هذه النسمة الرقيقة إلا مجريات السياسة التى كنتُ بعيداً عنها، عدم اكتراث، أو خوف على الروح، أو رهبة من جلادى العصر، لست أدرى، لم يكن هناك اختلاف بيننا سوى هذه المنطقة السياسة، فهى دائما تتابع كل تصريحات النظام وأفعاله، وتنتقدها بصوت عال، نسيت ما تعرضت له إبان اعتقالها فى أحداث يناير، أو تناسته، لكنه كان يعبر سحابة عينيها كلما تحدثت عن أمر مستجد، أو كلما ناقشت خطابا للرئيس، أما أنا فكنت أسمع، أسمع فقط، بينما تنتابنى رعشة خفيفة أجاهد كى أخفيها عنها. أنا أيضا أخاف عليها، أخشى على عينيها أن تدوسهما أقدام الدرك، أخشى على روحها أن تنالها أصابع العسس، أخاف عليك يا مريم خوفى على روحى، وربما أخاف عليك أكثر، أشعر أن الغيب يخبئ لنا ما لا نستطيع أن نتحمله. هذا هو عامنا الثالث فى الجامعة، مرت الأيام لا يضيئها سوى عيون مريم، وابتسامة مريم، ووجه مريم. وبدأ عامنا هذا عاماً هادئاً، الجامعة يعمها جو من السكون، أخشى أن يكون

الذى يسبق العاصفة، ولم يكد يبدأ نصفه الثانى، حتى بدأت النذر، تلقانى مريم باسمة الوجه، زائغة النظرات، يؤكد لى حامد أن هناك أمراً ما سيحدث.

الجرائد تلمّح، والمثقفون على المقاهى يؤكدون، والنظام لا ينفى، هناك كارثة ستتبع هذا الجو من الترقب الحذر، كلما مرت الأيام يزداد شرود مريم، وتغيبها عنا، واختفاؤها أحياناً عن الجامعة، تقول أنها لا ترغب فى مغادرة الفراش، جدران البيت سجن رحيم، ماذا حدث لكل هذا ؟ تؤكد مريم أن الرجل سيضع رأسنا فى التراب، سيبيع الدم ويبيح العرض، ويأخذنا معه إلى عار أبدى، لا يفارقنا ولا نفارقه، لقد قرر أن يبيعنا لهم، يبيعنا بلا ثمن، صك البيع بأيديهم، لم يبق إلا أن يذهب هناك، ويوقع على الصك، لم يكفه أن ذهب إلى عقر دارهم، يريد أن يكون البيع رسمياً وبشهود.

****

«إنها لحظة فارقة في تاريخ الأمة
جاء دور السيد الرئيس ليوقع علي المعاهدة
لتشهد كامب دايفيد هذه اللحظة التاريخية الخالدة»

أعرفها مريم عندما تموت فى داخلها، عندما تتفتت إلى شظايا، يصعب علىّ أن أجمعها أو أرتبها ثانية، فهى الآن إما فى غرفتها المظلمة تبكى بصوت عال وتبلل وسائدها بدموعها وترفض لقاءنا أو حتى الرد علينا عبر الهاتف، أو تمتلئ فجأة نشاطاً وحيوية فتخرج وتدور على المقاهى، تلتقى الشعراء وتستمع إلى قصائدهم التى تلعن اللحظة وتسب الرجل صاحب القصر، أو كما تسميه هى «تاجر الأعراض» الذى باعنا فى صفقته المشينة، ألاحظ أيضا كثافة التواجد الأمنى فى الشوارع، لكن لم يتعرض لنا أحد، لم يعترضوا طريقنا، وزادت دهشتى كلما مرت الأيام ولم يعتقلوا مريم و لا حامد أو أيا من الأصدقاء. نسينا الجامعة، وأعتقد أيضا أن أساتذتها هجروها، كنا نقابل الجميع – الأساتذة والزملاء – على المقاهى وفى الشوارع، الجميع ساخط، الأصوات عالية، الغضب

يطلق شرره داخل العيون، السخط فى الكلمات الثائرة، وفى قصائد أمل دنقل وأحمد فؤاد نجم، و أغانى الشيخ إمام التى راح يرددها الجميع، الجميع إلا أنا.

أنا الذى وقفت على الحياد، أستمع فحسب، لا يجمعنى وهذه النخبة سوى أن مريم وسطهم، تستمع وتجادل، وترد وتثور وتتمرد، نمرة شرسة أنت يا مريم حينما تغضبين، ولم أرك غاضبة قط إلا من أجل غيرتك على الوطن وحبك للأرض، وأنا.. ألا أحب بلدى ؟ أنا واثق أننى أحبها، ولكن كل منا يحب بطريقته، قالها لى حامد مرة، أنت سلبى، تريد كل شىء دونما تعب، ودون أن يمسك سوء، ربما يا حامد، ربما كنت كذلك، وربما أننى اكتفيت من الدنيا بحب مريم.

***

هكذا أنت دائماً يا غباشى، توقظنى من ذكرياتى، وتعيدنى دائما إلى هذه اللحظة التى يقتلنى فيها الألم، ويحدونى الأمل فى المغادرة، ما الذى جعلك تأتى فى هذه اللحظة يا غباشى، لتصرخ بصوتك القوى الذى شرخه الزمن:

- حسبنا الله ونعم الوكيل.. لكل ظالم نهاية.

النهايات بعيدة يا غباشى، بعيدة بعد السماء، وقريبه كحب جميلة ودموعها، لا تبتئس، استمع معى إلى إذاعة القاهرة:

*** مجازر بغداد تدين الغزاة.. رغم قتل شهود العيان.**
الطائرات الأمريكية تدك العاصمة بغداد.

١- فوزية

* مذبحة حي الشعلة تثير استياء العالم

لن يقضى عليك المرض، ستقضى عليك هذه الأنباء التى تتابعها ليل نهار، قلت لك أكثر من مرة أن تهتم بنفسك، الأخبار تقتلنا نحن الأصحاء، فماذا ستفعل بك أنت ؟ سأكون صريحة معك، الدكتور باسيلى غير متفائل، إنه يتابع حالتك منذ أكثر من عشرين عاما، يقول إن هذه المرة هى الأسوأ على الإطلاق، وقد لاحظ أنه كلما ازدادت الأخبار سوءاً، ازدادت حدة النزيف، لقد مضى ثلاثة أسابيع وفشلنا تماماً فى إيقافه، أنت تعيش على المحاليل، وأكياس الدم التى ننقلها لك لن تحميك كثيراً، أرجوك.. توقف عن الاستماع لهذه الأنباء، لا تقتل نفسك. يكفينا ما نحن فيه، إننا نموت كل يوم، لقد نسينا طعم الحياة، نركض بأقصى ما نستطيع لنصل إلى لا شىء، لا تنظر إلىّ بدهشة هكذا، لابد أنك سمعت عنى كثيرا، بالرغم من أننى لا أرى فى عينيك ما أراه فى عيونهم، لا أرى فى عينيك إلا براءة طفل صغير، إلا أننى متأكدة أنك سمعت عنى، فأنت أشهر مريض فى المستشفى، وأنا كذلك، أشهر ممرضة، اسمى على كل لسان، فى المستشفى وخارجها، يتحدثون عن مغامراتهم معى، إعجابهم باستدارة نهدىّ واستقامتهما، ملابسى التى تضيق عند الردفين فتضيق أنفاسهم فى الصدور، ملابسى التى تسقط عنى بيسر بمجرد أن يشير لى أحدهم بطرف إصبعه، مهارتى فى ممارسة الجنس معهم، وكيف أشعر كلا منهم انه الرجل الوحيد والذكر الأقوى بين كل الذكور، تأوهاتى التى تثير حواسهم وتلهبهم كالسياط. كل هذا صحيح، وأكثر، لكن واحداً منهم لم يفكر أبداً كيف وصلت إلى هذه الحال، كلهم يعتقدون أننى أطمع فى الجنيهات القليلة التى يلقونها إلىّ عقب كل مرة، ربما كان هذا صحيحاً ، لكنه ليس السبب، إنهم لا يعلمون أننى أحتاج إليهم أكثر مما يحتاجون إلىّ، لو مر يومان أو ثلاثة دون أن يأتينى رجل لبحثت أنا عنه، سامح الله أبى، هو الذى قادنى و أخواتى إلى هذا الطريق، هو وحده من جعل منا كما تقولون «ساقطات» نعم.. أنا ساقطة، من يد ممرض إلى فراش طبيب إلى سيارة ميكروباص بها سائق سكير، وربما دعا إلىّ

أصدقاءه يتبادلوننى حتى لا أقوى على السير ولا على الرؤية.

دعنى لا أكذب عليك، ولا أجمّل الحقيقة، إن كان أبى دلنى على الطريق ليحصل على المال دون عناء، فأنا أيضاً لم أكن بريئة تماما، شىء ما بداخلى كان يبحث عن هذه المتعة وإن كانت حراما، لقد استبدت بى شهوتى حتى أننى لا أستطيع أن أهجرها، غاب أبى، ولم تغب اللذة، ولم تنطفئ شهوتى يوماً واحدا، بل تزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم، نعم.. أنا أطلب أعلى سعر حتى لا ينكشف أمرى ولا يظهر ضعفى أمامهم، الوحيد الذى يضاجعنى دون مال هو الدكتور هشام، مدير المستشفى، لا لشىء إلا لأنه المدير، القادر على توقيع الجزاء دونما سبب، هذا القصير المكير كما يسميه غباشى، غباشى، هل تعلم أنه الوحيد فى هذه المستشفى الذى لم يضاجعنى، حاولت معه إلا أنه نظر إلىّ نظرة ما زالت ترعبنى حتى الآن، أنا لا أفهم هذا الرجل. ولكن دعنا منه، هو ليس مجال حديثنا، ماذا كنت أقول، آه.. الدكتور هشام، هو الرجل الوحيد الذى لا أشعر بلذة معه، إنما أشعر بقرف، تنقلب أحشائى، وأتحمله بصعوبة، فما إن يقذف سائله داخلى حتى أسرع إلى دورة المياه لأفرغ ما فى جوفى من شدة القرف، وأغتسل جيدا كأننى أحاول أن أمحو آثار أصابعه من على كل جزء لمسه فى جسدى.

الآن.. وبعد كل هذه السنوات أصبحنا - إخوتى و أنا - لا تعنينا هذه المفاهيم التى تعنى الكثير من الناس، لا يهمنا أن يتحدث الناس عنا، لا تعنينا السمعة ولا الشرف، فقدنا كل هذا منذ زمن، ما يعنينا الآن هو أن نعيش، نقضى أيامنا كما تريد هى، لا كما نريد نحن، المهم أن تمضى الأيام، لم نعد نحلم كما كنا من قبل، وكما تحلم كل الفتيات، بالبيت والزوج و الأولاد، لم أعد أحلم أن أكون أشرف امرأة وأخلص امرأة، غاية ما أتمناه الآن أن يأتينى كل ليلة رجل جيبه ممتلئ، وقوى، يرضى شهوتى ويترك لى الكثير من النقود.

سامحنى.. أنا لا أعرف ما الذى جعلنى أتحدث إليك فى كل هذا، لكنى أشعر أننى قريبة منك، وأشعر أنى أريد أن أتكلم، كل الذين يعرفوننى لا يستمعون إلا

لتأوهاتى وتنهداتى، وصرخات اللذة، أنت الوحيد الذى شعرت أنه يستطيع أن يسمع منى شيئاً آخر.. أرجوك.. سامحنى إن كنت أخطأت.

٢ - د. صلاح نصار

* معارك ضارية بين القوات الأمريكية والعراقية حول النجف.

لا تنتظر طلوع النهار، الغربان تنتشر فى كل مكان، غطت بأجنحتها الشمس وخبأت النور، وفرضت الظلام على أوطان كاملة، أسوأ شىء فى الحياة أن تشعر بالعجز، ترغب فى العمل ويكبلك السادة، لا تحزن على العراق وحده، بل احزن علينا من قبل، لقد اغتالتنا أنظمتنا أولاً و حولتنا إلى قطيع من الأغنام تقوده عصا كل من ملك سلطة، حتى لو كان مديراً لمستشفى كالدكتور هشام عبد المعطى، هذا الغراب الأسود القصير المكير كما يسميه غباشى، أنا لست غاضبا منه، بل حزيناً عليه، لقد سلم نفسه للشيطان وصار عميل مخلصا، واستطاع بسهولة أن يكتسب كراهية الجميع له. اعلم أن كل مكان هو عبارة عن العالم كله بصورة مصغرة، انظر إلى هذا المستشفى، تجد فيها أمريكا وسطوتها والسعودية وضعفها ومصر وخنوعها، تجد العملاء والجواسيس والمتمردين، تجد القوى يفرك عظام الضعيف، تجد الاستبداد والظلم والصمت، أو الحديث الهامس الخائف خلف الجدران، كل مكان هو عالم كامل، دنيا صغيرة.

لقد باعتنا الأنظمة العربية العميلة، قتلنا الصمت العربى والمصالح الذاتية قبل أن تقتلنا صواريخ أمريكا وقنابلها الذكية، الموت يحاصرنا منذ زمن ونحن نغمض أعيننا عنه. لقد تواطأ الإعلام معهم، والصحافة التى تتشدق بحريتها، فكان كل هذا التعتيم على المجازر التى تحدث كل يوم فى فلسطين، ماذا تسمع.. البرنامج العام، صوت الحكومة وبوق النظام، أدر مؤشر الراديو إلى الإذاعات الأجنبية، استمع إلى الحقيقة الكاملة، لا إلى رتوش نصفها كذب، مصيبتنا ومصيبة حكامنا أننا لا نقرأ التاريخ، وإن قرأناه لا نفهمه، وإن فهمنا نتجاهل ما فهمنا، نقول إن الزمن غير الزمن، على الرغم من أن الزمن واحد، والأحداث تكرر نفسها، ولكن بسيناريوهات جديدة تلائم العصر الجديد، بألسنة جديدة ووجوه جديدة وأسلحة

جديدة، ودعاوى قديمة لم تتغير، ولا يبقى لنا فى كل مرة إلا الغباء العربى، والخضوع العربى، وأخيرا الذل العربى. ودائماً يفرضون علينا الصمت، يذبحوننا ولا يريدون من الذبيح أن يصرخ، حتى صرخة الألم استكثروها علينا، إلى هذا الحد يا عزيزى هُنّا عليهم كما هُنّا على أنفسنا، ينشرون جواسيسهم فى كل مكان ليسترقوا السمع على صراخ البشر، حتى يكمموا كل الأفواه القادرة على الصراخ، كأنهم يقولون لك مت.. ولكن بلا صوت، أو اصرخ فى قبو مظلم أعددناه لك. ربما لا أراك بعد اليوم، لقد علمت أن عميلهم بالمستشفى الدكتور هشام أبلغ عنى مباحث أمن الدولة، لا بأس، لقد أعددت حقيبتى، أنا مستعد لأى شىء، وراض بأى شىء، لا يوجد أسوأ مما نحن فيه، وأنا فرد وسط قطيع يقاد، ولا ألوم الدكتور هشام، فالكل متواطئ، والكل جبان، صدقنى، لا بد من سقوط كل هذه الأنظمة العميلة، لابد من هبة للشعب العربى كله حتى يتنفس الناس هواء طيبا، ولكن.. متى يحدث هذا...

أراك على خير إن قدر لى أن أرى شيئاً فيما بعد.

٣- سوسن

*** ضرب بغداد بالصواريخ والطائرات والقنابل الذكية لم يتوقف طوال الليل.**

هل سمعت بما حدث ؟.. لقد قبضوا على الدكتور صلاح نصار، الجميع يعلمون أن الدكتور هشام هو من وشى به، لكنه يستحق، ماله هو والسياسة، إنه لا يترك مناسبة ولا مكان يذهب إليه إلا ويلعن الحكومة ويسب الحكام، وكأن الدنيا لا يوجد بها إلا الفساد، هو لا يرى أن الحياة حلوة ويجب أن تُعاش كما هى، بكل ما فيها، إن روعة الحياة فى الرضا، أن نرضى بكل ما فيها، نرضى بها.. بحلوها ومرها، لكنه لا يرى من الحياة إلا اللون الأسود.

لقد كنت أسمعه فيقشعر بدنى، اسمح لى حضرتك، إن ما كان يقوله «قلة أدب»، نعم والله، كيف يسب الحكومة، وهل نحن نقدر على الحكومة، هل وظيفته ستحميه، والمصيبة أنه كان يعلم كما نعلم جميعاً أن الدكتور هشام مدير المستشفى عين الحكومة، وما كان ليرتدع، كان يقف أمامه ويتهم الحكومة بالتجسس والخيانة والعمالة، ولكن ماذا يقصد بالعمالة؟ أنا لم أفهم معناها، هل تعرف أنت ؟ لا بأس، لا تشغل بالك، هل تسمع؟ إنه غباشى، ما إن تخلو المشرحة حتى يخرج ويلعلع بصوته «حسبنا الله ونعم الوكيل - لكل ظالم نهاية»، غباشى هذا شخص مخيف، إنه ينام مع الأموات داخل المشرحة، لا بد أنك تعلم لماذا لا يشى به الدكتور هشام لدى أمن الدولة، فنخلص منه هو الآخر، ليته يفعل.

إن قسم القلب، آه نسيت أن أخبرك، أنا سوسن ممرضة قسم القلب، لقد اخترت القسم بنفسى لأعمل به، لأننى أدعى أننى أفهم لغة القلوب، و أنى أملك قلبا رهيفا، كقلبك أنت، لا تسألنى كيف عرفت، ألم أقل لك إنى أفهم لغة القلوب، ولغات أخرى سأحدثك عنها أيضا، المهم، قسم القلب ليس له حديث إلا عن الدكتور صلاح، حتى مللت، أنا أكره أحاديث السياسة، ولا أحب من

يسب الحكومة، فالحكومة هى أمى وأبى، هل تسب أمك وأباك، أنا لا يسعدنى إلا أحاديث الحب والعشق و الهوى، هل أحببت ؟ بالطبع أحببت، أنا متأكدة أنك أحببت، وأنك أخلصت لمن أحببت، لكننى لا يهمنى الإخلاص، المهم عندى هو الحب، والحب وحده، لذلك يصعب على أن أحصى لك عدد من أحببتهم، فهم كثير، كثير، ولكن لا شىء نعرف عنهم، (على رأى عبد الحليم، بتسمعه، أكيد بتسمعه، واحد زيك لازم يكون بيحب عبد الحليم، أنا باعشقه) على فكرة أنا أعرف عنك كل شىء، فوزية ثرثارة، تتحدث كثيرا، منها عرفت عنك كل شىء وتمنيت أن أراك، هل تريد الحق، لقد دخلت قلبى من أول لحظة رأيتك فيها، ليتنى ممرضتك، لما تركتك لحظة واحدة، كنت سأهمل كل المرضى وأبقى بجوارك، قل لى.. هل نمت مع فوزية ؟ إنها تنكر، كلما سألتها هذا السؤال تقول إنك لم تطلب منها، أو تقول إن النزيف يقضى على قواك، أنا لا أصدقها، أنت تتردد على المستشفى منذ سنوات، وكانت أمامك أكثر من فرصة، لا تنكر أنت أيضاً ، حتى لو لم ترغب أنت، فوزية قادرة على أن تثير رغبتك، هل تعرف ؟ هى جميلة ومثيرة حقاً ، لكنها مشاع، ملك لكل من يشير إليها ويمنحها بضعة جنيهات، تباع وتشترى كالجوارى، فرجها مر على كل ذكور المستشفى، حتى صار كالبالوعة التى لا تشبع و لا يسدها شىء. أما أنا فلا أعطى نفسى إلا لمن أحب، لأتمتع بمن أحب و أمتعه بى، كيف تأتى المتعة من رجل سيلقى إلىّ أجر اللحظة التى أقضيها معه، حتى وإن تعدد الذين أحبهم، يكفينى الشعور أننى أحب هذا الرجل الذى يشاركنى الفراش، أبوح لك بسر؟ لقد أحببتك، نعم.. أحببتك، وأرغب لو تشاركنى فراشى، لكنك الآن مجهد، سيأتى يوم ويتوقف فيه النزيف وتقف على قدميك، ساعتها سأكون بانتظارك، نسيت أن أخبرك.. لقد أنقذوا المعاون عدلى من السجن، لقد سرق جهاز تكييف من المستشفى و أحضروه من منزله، لولا تدخل مدير المستشفى لألقى به فى السجن، ما الذى يجعل مدير المستشفى يتدخل فى أمر كهذا، الكل

يعلم، ولكن فكر أنت.
سأتركك تستريح.. ولا تنس أننى فى انتظارك.

٤ - عدلى

* قطع الماء والكهرباء عن البصرة

أخبرتنى فوزية أنك تريد رؤيتى قبل أن أترك المستشفى، أنا عدلى معاون المستشفى، نعم.. المعاون سابقاً، لقد التقينا مرتين أو ثلاث، لا أذكر، لكننا لم نتحدث من قبل، أعرف أنك تحب غباشى، غباشى الذى لا يحبه أحد ولا يطيقه أحد، أنت تحبه، أنت حر، ماذا تريد ؟ آه.. أعرف، لقد بلغتك الأنباء الأخيرة كما بلغت غيرك. فى بلدنا هذا يقولون مثلا شهيراً.. «إن وقع العجل كترت السكاكين» وقد سقطت، وكثرت السكاكين، لكنها لم تأت من فراغ، إنها جاهزة ومعدة فى انتظار اللحظة، كلهم كانوا ينتظرون أن أقع، أنا لست لصا كما يدعون، أنا خادم، مجرد خادم للص كبير، ولمجموعة أخرى من اللصوص، لكنى خادم ذكى، لقد سرقنا دم هذا المستشفى طوال السنوات السابقة ولم يشعر أحد، لماذا هذه المرة قامت القيامة ولم تقعد، أنا لست الشيطان الوحيد، وهم ليسوا ملائكة، كلهم لصوص، صدقنى، لحمهم نبت من حرام، تجرى فى عروقهم دماء فاسدة، لكنهم يدعون البراءة والشرف، أنا وحدى الذى يعرف كل شىء، لأنى شريكهم جميعاً، الكل يحتاجنى لتخرج سرقاتهم من المستشفى، من مدير المستشفى حتى العمال الذين يسرقون مواسير الصرف وأسلاك الكهرباء، هل تريد أن تعرف ؟ لن تجد من يخبرك الحقيقة غيرى، اسمع يا سيدى، أطباء العمليات يطلبون من المرضى شراء مستلزمات الجراحة من القفاز البلاستيك حتى حقن التخدير (برغم وجودها) لتقسم عليهم لاستخدامها فى عياداتهم الخاصة، أطباء القسم الداخلى يتواطؤون مع أمناء المخازن ليحصلوا على الأجهزة الطبية الجديدة من سماعات وأجهزة قياس الضغط حتى أسرة الكشف، ويتم نقلها بمعرفتى إلى عياداتهم، ويسلمون للمستشفى الأجهزة القديمة التى لا تعمل، وعند الجرد فالأجهزة موجودة وقد استهلكت، والكل مستفيد، الكل إلا المريض، ليس له مكان بيننا، المدير يعرف جيدا أن المستشفى يتحول فى الليل إلى بيت دعارة، فيصمت ويدعونا للصمت، لأنه يضاجع الفتيات هو أيضا ولكن بلا مقابل، والبنات الشريفات يتحملن وحدهن

ضغوط العمل وقذارة ألسنة زميلاتهن، وجزاءات المدير التى لا تنتهى، والتى تتحول إلى صندوق الجزاءات، ثم إلى جيب المدير بالطبع. هل تعتقد أن المدير تدخل فى قضيتى حباً فىّ، لا.. بل خوفاً منى، لو وصلت إلى النيابة كنت سأقول كل ما سمعته منى الآن، هو يخشانى ويخشى ما لدىّ من معلومات تدينه، لذلك أسرع واستخدم نفوذه و أخرجنى من قسم الشرطة، ولا تعتقد أن جهاز التكييف الذى وجدوه عندى هو الوحيد المسروق، بل هو واحد من أصل سبعة أجهزة ذهب اثنان إلى منزل المدير، وأربعة لزبانيته المقربين، ولم ينكشف إلا الذى ذهب إلى بيتى، نحن عصابة لا بد أن تحمى بعضها، وإجراءات نقلى الآن لامتصاص حالة الغضب التى يشعر بها البعض، ولكى نخرس الألسنة قليلاً، لكنى سأعود، فهذا مكانى، وهم يحتاجوننى، صدقنى يا سيدى.. سأعود.. سأعود قريباً جداً.

٥ - غباشى

* **استشهاد ٥٠ مدنياً عراقياً**
* **الانفجارات تدوى فى الموصل**

أغلق الراديو من فضلك، لا تأتى منه إلا الأخبار السيئة، يكفيك ما فيك، قالت لى فوزية إن النزيف يشتد فى الأيام الأخيرة، ماذا حدث ؟ لماذا كل هذا الاستسلام الذى أنت فيه ؟ عليك أن تقاوم كما كنت دائما، لقد اعتدت عليك، لا أريد أن أفقدك، لماذا أرسلت لعدلى ؟ ماذا أردت أن تسمع منه ؟ هل تظن أنه سيصدقك القول ؟ إنه كاذب ولص وحقير، أنا واثق أنه ادّعى البراءة ولعب دور الضحية وكبش الفداء، صدقنى يا أستاذ، إنه وراء كل مصيبة تحدث داخل المستشفى، ماذا قال لك ؟ هه.. هل قال لك إنه يحرض العاملات ليأخذن أموالا من أهالى المرضى ليقسمها معهن على شكل إتاوات شهرية تختلف قيمتها باختلاف الأقسام التى يعملن بها، هل قال لك سبب العداوة بينى وبينه ؟ كانوا قبل أن أعمل فى المستشفى يدخلون خلف الجثث إلى الثلاجة - خاصة الحوادث - ويأخذون ما بها من مال وذهب، وكل ما يصلح، لكنى أغلقت عليهم هذا الباب، فلا يدخل أحد من رجاله إلى الثلاجة فى وجودى، وأنا لا أغيب أبدا، فلا بيت لى كما تعلم إلا ثلاجة حفظ الموتى، فانقطع عنهم مورد الرزق. أنا أعرف الكثير.. لكنى لا أتحدث، فليبقوا بعيدا عنى، وأنا أيضا سأظل بعيداً عنهم، لا أريدهم، كما انهم لا يريدوننى، حتى الدكتور هشام نفسه يتجنبنى، لأنه يعلم جيدا أنى أعرف عنه الكثير، أكثر مما يتردد حوله من شائعات معظمها صحيح.

أنا لا أريد أن أصيبك بالصداع، هذا المستشفى - أو هذا المستنقع - أقل من أن تشغل بالك به أو بمن فيه، إنه وباء، والعاملون به جراثيم قذرة، تؤذى كل من يقترب منه. لكن لدى نبأ طيب، إنه لا يهمك، لكنه يسعدنى، لقد أقالوا الدكتور هشام، سحبوا منه كل اختصاصات مدير المستشفى، ولكن للأسف سيظل رئيسا لقسمه، سأراه كل يوم، لا بأس، المهم انه لم يعد مديرا للمستشفى. لا يهم من المرشح لخلافته، أيًّا كان فلن يكون بسوء هذا الرجل الذى ملأ كرشه من الحرام،

و أسس عصابة كاملة تعمل تحت إشرافه وقيادة الداهية الأكبر عدلى.

أعتقد أن الأمور قد تتحسن، وربما المدير القادم يعطينا بعض حقوقنا الضائعة، لا بأس، المهم.. أرجوك.. اعتن بنفسك، أنا قلق عليك، أنت لا تدرى كم أحبك، أنت الشخص الوحيد هنا الذى أتحدث إليه، كلهم سفلة لا يستحقون حتى أن تنظر إليهم، إننى أبحث عن الصحبة لديك.. فابق.. حتى أبقى أنا.. آه.. قبل أن أنصرف.. رجاء أخير، لا تترك سوسن تأتى إليك مرة ثانية.

آخر النهار

*** صاروخ أمريكي يحصد ٤٥ شاباً عراقياً بعد اجتيازهم الحدود الأردنية مباشرة.**

حيادى صوت المذيع.. دائماً، ورائحة الموت تملأ المكان، تنتشر فى الهواء، تعبر الأثير، أكاد أشم رائحة الجثث المحترقة من بين حروف البيانات المتوالية، فشلت محاولات أمى فى إغلاق المذياع، تربكها دائما نظراتى المستجدية، فتعيد فتحه من جديد، فينطلق الصوت الخالى من المشاعر ليبث فى أعضائى قشعريرة الألم دون أن يأبه بى، لا توجد لحظات رحيمة، ولا نية صادقة للعفو عن هذا الصقيع الذى يتسرب بهدوء شديد إلى كل أجزاء جسدى، حيث ترتفع أصوات القنابل والصواريخ بينما تبهت أصوات البيانات العربية. المستشفى أيضا يعيش حالة الحرب، الحرب الداخلية، وتعم الفوضى فى كل مكان، وقع المدير المتهم بالتواطؤ مع اللص، أو كما يسميه غباشى «اللص الأكبر» أو «اللص الحقيقى»، كانت مشادة كبيرة كشفت للحضور الكثير مما كان خفياً عنهم، ثم بدأت الحرب بين الكبار، فيمن يستحق أن يتولى منصبه، يقول غباشى إنهم ينتظرون الفرصة ليتحولوا من شرفاء إلى لصوص، أو ربما هم لصوص يتحينون الفرصة لإثبات قذارتهم. تقول سوسن إن الدكتور رأفت هو المرشح بقوة لنيل المنصب ليتحول المستشفى على يديه من سيئ إلى أسوأ، هى لا تنتظر خيراً فى الأيام القادمة، ولا أى من العاملين بالمستشفى. نسى الجميع الدكتور صلاح فى غمار التقلبات السريعة داخل الإدارة، نسى الجميع الصوت الوحيد الذى كان يعبر عن الحرية وعن حق الفرد فى أن يرفع صوته ويجهر بآرائه رغم أنف الظلم، لكن أعتقد أننى الوحيد الذى أتذكره، ويلح علىّ حضوره، و أشتاق إلى ثورته وصراخه، لا.. لست الوحيد، لا بد أن غباشى أيضا يتذكره، فهما من طينة واحدة كما كان يقول عدلى، معاون المستشفى وذراع الدكتور هشام الطويلة.

ترى أين أنت يا دكتور صلاح ؟

***

لقد نزفت كثيرا فى الأيام الأخيرة، ذهنى لم يعد صافيا تماما، بدأت الأشياء تختلط علىّ، لم أعد أميز الأمور جيداً، ولكن أحيانا يعود لى صفاء ذهنى، وأستطيع أن أفكر فيما يدور حولى، زادت زيارات الأطباء وجرعة العلاج، وارتفع عدد أكياس الدم التى أحصل عليها من كيسين كل يوم الى ثلاثة، أصبحت أرى دموع أمى كثيرا، وأسمع نشيجها فى الليل، أسمعه حينما يعلو رغماً عنها، أبى لازم الأرض بجوار فراشى، يده لا تفارق مسبحته، كتاب الله فى يده يقرأ بصوت عال، ويدعو الله لى بصوت خفيض، وأشعر من نظرات أمى أنها تودعنى، و أشفق عليهما كثيراً، لكن ماذا عساى أن أفعل، وأنا ضعيف أمام موت مراوغ.

لم أر غباشى خلال الأيام الماضية، ولم أسمع صوته، لكنى أشعر به أسمع خطواته البطيئة وهى تقترب من نافذة حجرتى، وتتوقف قليلاً، ثم تعاود السير، اشتقت إليك يا غباشى، أعرف أنه يحبنى، وأعتقد أنه تسيطر عليه هذه الأيام روح جميلة، هو لم يحكِ عنها لأحد غيرى، وهذا ما قرّبه منى أكثر، لماذا أنا بالذات يا غباشى، ما الذى هداك إلىّ وجعلك تبوح لى بسرك الدفين، هل تشعر أنك ستنام بجوارى قريباً داخل الثلاجة، ثلاجة حفظ الموتى يا غباشى.

*** اقتحمت القوات الأمريكية بغداد دون مقاومة.**

*** هز شيخ الجامع يده في قوة وهو يصرخ:**

*** وقتل التتار ثمانين ألف مسلم في العراق فى أربعين يوماً.**

يا الله..

يا رافع السماء وباسط الأرض وجاعل النجوم هدى للضالين

اهدنى..

يا الله..

أعنى علىّ وارحمنى.. لقد زاد العذاب، وأنا عبدك الضعيف، أنّىَ لى أن أحتمل.

ربيع يقتل الزهور
«الرسائل»

حاشية «أ»

وصار القتال
يقرب ع التلال
والدنى دنى
وعلقت ع أطراف الوادى
شادى ركض يتفرج
خفته صرت أنده له
وينك رايح يا شادى
أنده له ما يسمعنى
ويبعد يبعد بالوادى
من يومتها
ما عدت شفته
ضاع شادى

«أغنية لفيروز»

١ - الغياب

*** الدبابات الأمريكية وصلت لساحة الفردوس بوسط عاصمة الرشيد.**

قائد أمريكى: الجنود هربوا وتركوا أسلحتهم.

العراقيون: أين ذهبت الحكومة؟

يا الله..

يا واهب السماء نجومها.. والغيب نجومى، يا واهب الأرض الموت والشقاء. وواهب الليل عيونى، متى أغمضها وأرى الفجر، متى ينقشع هذا السواد وأتنسم رائحة هواء لا عطن فيه.

هو الليل مرة أخرى يمتد أمامى، لكنى الآن لست وحيداً كما كنت دائماً، يشاركنى فى هذا السهر الإجبارى أبى وأمى ونوبتجية الأطباء والتمريض وأكياس الدم والمحاليل الطبية، والمحاولات المستميتة لوقف النزيف المتواصل. لست وحدى.. معى كل هؤلاء وقبلهم غباشى، الذى جلس أمام وجهى ناظرا إلىّ بعينين ساهمتين تطل منهما جميلة فى بهائها الأخير.

معى كل هؤلاء، ولكنى - ولست أدرى السبب - لا أشعر بأحد، لا أجد معى سوى شخص واحد، لا أجد سوى مريم، أسمع صوتها، خطواتها الرشيقة، ابتسامتها الحلوة، روحها الشفيفة، شقاوتها.. عنادها.. قسوتها على نفسها.. حنانها علىّ، حتى جميلة التى تنظر إلىّ من عينىّ غباشى.. تتحول صورتها تدريجياً إلى صورة مريم، يا مريم.. هزى إليكِ روحى المتعلقة بهذا الجسد النحيل، تساقط الأرواح الهائمة على عشب الأرض الميتة، فتنبت زهورا وبساتين، تتفجر خلالها أنهارا ورؤى حائرة. وينسحب الموت تدريجيا حتى أشعر بحلاوته وقسوته. معى كل هؤلاء.. ولا أرى سوى مريم.. أغنية السواقى وزقزقات العصافير وأناشيد الليالى المقمرة، وحواراتنا الساخنة بجوار سور الجامعة، على كوبرى المنيل، شوارع القاهرة وحواريها ومقاهيها

التى شهدت تسكعنا وخلافاتنا ولحظات الحب وشراسة المواقف الراهنة، علقت الممرضة التى لا أعرف اسمها فى يدى اليمنى زجاجة المحلول بينما يتسلل الدم فى وريدى الأيسر عبر أنبوب طويل تصل نهايته إلى كيس الدم المعلق على الحامل المخصص له بجوار فراشى، تحتضن مريم كفى اليمنى بين كفيها - كما كانت تفعل دائما - تقبل مريم كفى اليسرى بشفتيها المبللتين بدموعها، ترفع وجهها وتبتسم لى ابتسامتها الأخاذة، ثم تختفى ثانية.. أدور برأسى فى الغرفة، الممرضة.. أبى.. أمى.. غباشى.. أين مريم.. أهمس بضعف.

- مريم..

تسمع أمى همسى.. يرتفع نشيجها، يغادر أبى الغرفة ويعلو صوت نشيجه عند الباب، يقترب غباشى منى:

- ماذا تقول ؟

- أهمس فى حيرة:

- مريم..

يمسح غباشى رأسى بيده مردداً:

- جميلة ماتت يا أستاذ.

***

أحياناً تصفو ذاكرتى تماماً، وتعود لأحداث موغلة فى القِدم، أن أراها هكذا، تعود بى ذاكرتى إلى عشرين عاماً مضت، فأتذكر تفاصيل ظننت أنها طويت فى خزائن النسيان، تعود إلى سنوات الجامعة، الأصدقاء، المحاضرات، مظاهرات الطلبة، حامد ؛ ومريم دائماً.. مريم.. قصة الحب التى نمت داخل أسوار الجامعة، وشهدت عليها شوارع القاهرة ومقاهيها وأمسياتها الأدبية وطلبة كلية الآداب، والليالى التى لم يحط بها النسيان ولا أغفلتها الذاكرة.

حاولت مريم كثيراً أن تقنعنى بالعمل معها - عقب تخرجنا - فى واحدة من أهم الجرائد اليومية والتى يعمل بها خالها مديراً للتحرير، رفضتُ رفضاً قاطعاً، أنا لا أحب الصحافة، ولا أقرأ الجرائد، فكيف أعمل فى جريدة؟.

ثم إننى خريج آداب، إلا أنها تصر أنها أيضا خريجة آداب، وسنتدرب معاً على الكتابة الصحفية، تقول أن لغتى أدبية، أؤكد أنها ليست لغة صحفية، حاولت كثيراً.. لكنى رفضت، بينما وافق حامد أن يلتحق بالإدارة القانونية بالجريدة نفسها، لقد توسطت لحامد إكراماً لى وفى محاولة لإقناعى أن أعمل معهما، لا أنكر أن رفضى لم يكن لجهلى الصحفى وعدم رغبتى أن أقيّد فى دائرة صنع الأخبار فقط، ربما كان أهم الأسباب أن العمل جاء عن طريق مريم، أنها هى السبب، شىء ما بداخلى رفض أن تكون سبباً فى العمل.

التحقت مريم بقسم الشئون الخارجية بالجريدة، وظلت فترة تكتب بها دون أن يوضع اسمها أسفل ما تكتبه، كانت تشير بإصبعها على أخبارها وتقول: غداً سيوضع اسمى فى مكان ما بداخل هذه الصحيفة. كانت تعمل بجد وبحب وبحماس، بينما رضيت أنا بعملى مدرساً مثل الآلاف من أمثالى. رضيت بمكانى ومكانتى، بينما كانت مريم تبحث بجهد عن موقع لها، أثارت كتاباتها الانتباه، أبدى الجميع إعجابهم بها، ظهر اسمها لأول مرة بعد اغتيال الرئيس السادات فى أكتوبر ١٩٨١ أسفل مقال تناول الحادثة بنوع من التشفى الخفى الذى تستطيع أن تفهمه لكن لا تستطيع أن تحاكمه، وكانت سعيدة عندما ظهر اسمها لأول مرة، ولمرور المقال من تحت أنف الرقيب دون أن يلاحظه، أو أنه لاحظه وادعى أنه لم يفعل، ربما.

توالت كتابات مريم بالجريدة وبدأ اسمها يكبر قبل أن تتم عدة أشهر بها، وتعلمت أنا عادة جديدة، تعلمت قراءة الجرائد، أو بمعنى أدق قراءة مقالات وموضوعات مريم فحسب، على الأقل استعداداً لأسئلتها التى ستلاحقنى بها فور لقائى عن المقال ولغته وأهميته وردود الفعل التى أثارها فور صدور

العدد، أشعر بسعادة غامرة عندما أسمعها تتحدث بهذا الحماس، عندما أرى السعادة تطل من عينيها، عندما تحدثنى عن مشروعاتنا القادمة، عن شقتنا التى استأجرناها مؤخراً، عن العمال الذين يتباطؤون فى عملهم، عن المصروفات الزيادة هذا الشهر، دبلة الخطوبة التى ستتحول من يد إلى يد، زيارتها الأخيرة لأمى وفرحتها بدعائها لها عقب كل صلاة.

قَرُب الانتهاء من بيتنا الذى سيضمنا وحدنا.

مريم تعلم جيداً كم يسعدنى أن تحقق طموحها، على ألا يكون هذا على حساب سعادتنا، علمت منها أخيراً أن الحرب فى لبنان بدأت تأخذ منحى جديداً، لكنى لم أكن أعلم أن هذه الحرب ستؤثر على مصيرنا معاً، لقد علمت مريم أن وفداً من الجريدة سيذهب إلى لبنان لتغطية الأحداث الدامية التى تجرى هناك، وما كان باستطاعتها وهى صحفية فى بداية الطريق أن ترافق هذا الوفد، لكنها لم تستسلم، وحاربت، حاربت على جبهتين، الأولى فى الجريدة والثانية والأهم.. هى حربها معى، لقد رفضت تماماً سفرها، خاصة أنه تتبقى شهور قليلة على حفل زفافنا، ثم ما الذى يجعلها تخاطر بحياتها فى بلد لا ينقطع فيه صوت الرصاص ليل نهار.

لعنة الله على الفرصة.. والسبق الصحفى، والأسماء ذات الحجم الكبير، والصحافة كلها، لماذا تسيرين بقدميك نحو حمامات الدم، مالنا نحن وما يحدث فى لبنان، أنا أريدك هنا.. جوارى، معى، ثم ما الذى يضمن لى عودتك سالمة من هناك، لقد اعتذر عن هذه المهمة الكثيرون، لماذا تذهبين أنت إليها بقدميك، لماذا تقاتلين كل هذا القتال من أجلها، أى مصير تقودك إليه رغبتك فى النجاح وإثبات الذات ؟ وأى مصير يقودنى إليه عنادك ؟ هكذا أنت دائماً يا مريم.. صلبة وعنيدة، ولا يستطيع أحد أن يجبرك عن تغيير مواقفك.

- لا تقلق.. سأرسل لك كلما سنحت الظروف.

لماذا نجعل رقابنا تحت رحمة الظروف، ونجعل أرواحنا أمام مدافع

المقاتلين، أتبيعين الأمان بالخطر، أخشى أن تعودى من لبنان برغبة أخرى فى تغطية أخبار الحرب الأخرى بين العراق وإيران، ثم تبحثين عن الحروب والأوبئة والكوارث فى كل أنحاء العالم، ماذا سأفعل حينذاك، وكيف أقصيك عن النجاح المدمر والمخيف الذى تسعين إليه.

- اطمئن.. سأعود قريباً، (عمر الشقى بقى).

الرسالة الأولى
بيروت: ٣حزيران / يونيو ١٩٨٢

اشتقت لك كثيراً، اشتقت لكل شيء، البيت، شوارع القاهرة، أبواق السيارات، أصوات الباعة التى توقظنى كل يوم، جلوسنا فى زهرة البستان، مشينا طويلاً دون الشعور بالزمن، اللحظات المسروقة من عمرينا، السعادة المختلقة، والفرحة الغامرة حينما ألقاك، اشتقت لكل هذا، ولكن أكثر ما اشتقت إليه هو أن أراك، فقط أراك، وأغرق فى صفاء عينيك، وأترك راحتى ترتاح فى كفيك، لم أكن أعلم أن سعادتى الحقيقية أستمدها من وجودى معك، أدع لى أن أعود بسرعة أنا الآن جالسة على مقعد متداع أمامى منضدة بالية تهتز كلما كتبت كلمة، داخل مكتب وكالة الأنباء العربية ببيروت، الواقعة فى أحد المبانى القديمة، حيث حرصت الوكالة على عدم الإعلان عن موقعها حتى بلافتة، إن الوضع لدينا أسوأ مما تخيلنا، وأبشع مما تنقله لنا الجرائد كل يوم، إن الحقيقة أكثر مأساوية من الكتابات التى تحاول أن تصف المشهد، مهما اقتربت منه، فإنها لا تفيه حقه، إن الواقع أكثر مرارة فى الحلوق.

أذهلنى كم الأسلحة فى الشوارع، الكل تقريبا يحملون الأسلحة، نظرات التربص والعداء تجدها فى كل العيون، الكثير من الدماء الطازجة والمتخثرة موزعة على الجدران والأرصفة وتدهسه السيارات على الإسفلت، الدماء تتخذ ألواناً عديدة، وأشكالاً مختلفة، هذه الدماء كانت بشراً يسير على الأرض، يملأها حياة.

هل تصدق.. حتى الأطفال يحملون الأسلحة، ويدخنون السجائر فى نشوة صامتة، التقيت أحدهم فى اليوم الثالث من وصولى لبنان، كنا نتفقد مواقع الضرب فى صور بعد ما أغار عليها الطيران الإسرائيلى وظل يضرب المدينة لمدة ساعتين من الجو فى أبريل الماضى، خرج لنا هذا الطفل - أو الرجل الصغير - مرتدياً سروالاً زيتيا وقميصاً مفتوح الصدر، ظهر حاملاً بندقية آلية تفوق وزنه، لكنه كان يحملها بخفة ويتحرك بسرعة عابراً فجوة أحدثتها إحدى القذائف فى

جدار بناية لم يعد يظهر منها إلا هيكلها أو ما يشى أنه كان هنا يوماً ما بناية يسكنها بشر كانوا يملئون الدنيا ضجيجاً وحياة.

لقد واجهت صعوبة فى النوم عند بداية وصولى، أصوات الرصاص لا تنقطع ليل نهار، أحياناً أسمعها قريبة جداً، تكاد تكون خلفى مباشرة، استولى علىّ الخوف لأول مرة فى حياتى، ظننت أننى لن أعود، وأننى ستغتالنى رصاصة أثناء نومى، لكنى بعد عدة أيام تمالكت نفسى، رأيت الحياة تسير، والعمل يأخذنا، إلى أن اعتدت أن أكتب رسالتى إلى الصحيفة تحت أصوات الرصاص المتقطع، أما الآن فالجو هادئ نسبياً، طلقات متفرقة يأتينا صوتها من بعيد، وكأن الظروف تهيىء لى وقتاً رومانسياً لكى أكتب إليك، لا تجعل ما قلته يقلقك علىّ، أنا بخير، ومحاطة بكتيبة من الرجال يحمونى بأرواحهم، ثم كما نقول دائماً «عمر الشقى بقى».

انتظر لحظة..

.....

.....

.....

عفواً يا حبيبى.. لقد وصلتنا أنباء عن محاولة اغتيال السفير الإسرائيلى بلندن «شلومو أرجوف»، يقولون إن منظمة التحرير الفلسطينية خلف محاولة الاغتيال، أشعر أن الوضع سيتفاقم، سامحنى يا أعز الناس، سأراسلك قريباً.. ضع قلبى بين كفيك.. واضغط عليه بحنان، وتلقَ منه ينابيع الحب.

الرسالة الثانية

بيروت: ١٤ حزيران / يونيو ١٩٨٢

لا شمس ولا قمر، لا تعاقب لليل والنهار، إنما هو ليل واحد، طويل ومظلم وكئيب ومتلفح بالخوف، ليل واحد ينثر الموت حوله فى كل مكان، فى كل وقت. عفوا يا حبيبى أن بدأت خطابى معك هكذا، لكن الوضع لدينا يتطور بسرعة مخيفة، فمنذ القصف المتبادل بين سلاح الجو الإسرائيلى وقوات منظمة التحرير الفلسطينية فى أبريل الماضى، والذى أعقبه محاولة اغتيال شلومو أرجوف سفير إسرائيل فى بريطانيا فى ٣ حزيران، انقلبت الدنيا، ويبدو أن إسرائيل كانت تنتظر الذريعة التى تدخل بها لبنان بكل قوتها، بدأ الأمر عندما سمعنا عن قصف متواصل قريب منا، أزيز الطائرات فوق رؤسنا مباشرة، لقد بدأت إسرائيل تقصف منشآت خاصة بمنظمة التحرير فى قلب بيروت، شعرنا جميعا باقتراب الخطر، لم يكن دخول إسرائيل فى مخيلة أكثرنا، لكن أكد البعض أنه كان يتوقع هذا التدخل، خاصة لزيادة نشاط قوات منظمة التحرير فى الفترة الأخيرة، بل راح عمر منصور - وهو صحفى فلسطينى يراسل التايمز - يؤكد أن إسرائيل لن تكتفى بضرب المنشآت الفلسطينية بالطيران، بل ستدخل بقواتها إلى الجنوب، اعترض الأستاذ سليمان مرعى - رئيس الوفد المصرى - على أفكار منصور، واحتج بوجود قوات الأمم المتحدة، وأن إسرائيل لن تستطيع أن تتخطاها حتى تصل إلى مواقع الفلسطينيين، كنت أستمع إلى الحوار الدائر بينهما، وتفكيرى يأخذنى إلى منحى آخر، ماذا لو وصل الإسرائيليون إلى هنا، إلى بيروت، إن المدينة بلا مراقبة، وبلا حكومة، وهذا بالإضافة إلى أن الحكومة المرتقبة (حكومة بشير الجميل) الذى أخذ وعداً من الأمريكان بأن يكون رئيس لبنان القادم، هذه الحكومة موالية لإسرائيل، تربطهما تحالفات سابقة، تحالفات سرية، لكنها تكاد تكون معلومة لدى الجميع، كما أنهم ضاقوا ذرعاً بالفلسطينيين ويودون التخلص منهم. زميلنا إسماعيل فتحى يجلس على الطاولة أمام الهاتف، الجرس لا يتوقف عن الرنين، الأخبار متلاحقة، إسماعيل يلهث وهو يكتبها فى وريقات صغيرة، أعيد

صياغتها وأسلمها للأستاذ سليمان الذى يعد التقرير الليلى الذى سنرسله إلى القاهرة، الأستاذ سليمان يلح على إسماعيل: أعرف كم عددهم، ٢٥٠٠٠ جندى إسرائيلى اقتحموا الحدود اللبنانية ومروا ببساطة أمام قوات الأمم المتحدة، ضحك عمر منصور بمرارة مرددا:

- ألم أقل لكم ؟!

لقد دخل الإسرائيليون على ثلاثة محاور، الخط الساحلى ومن خلال قوات الأمم المتحدة فى الناتورة، وعبر إيل السقى، ومن وسط تبنين. كان الغزو واضحا، وتأكدنا أن هذه العملية واسعة النطاق. الهاتف يرن، أحدهم على الجانب الآخر:

- الزوارق والطائرات الإسرائيلية تقصف صور.

المدينة تئن تحت ضغط النيران القادمة من البحر والمتساقطة من السماء، بينما تستمر القوات الإسرائيلية فى التقدم، وتستمر قوات منظمة التحرير فى التراجع، تحقق مكاسب ضئيلة، لكنها لا تذكر، العدو أمامهم بكامل عدده وعدته، إن دخول إسرائيل إلى الساحة قلب الموازين رأسا على عقب، ربما كان أكبر خطأ ارتكبته المنظمة فى هذه الفترة، هو استفزاز إسرائيل والسماح لها بالتدخل فى الوضع اللبنانى بهذا الشكل، لقد تحولت الحرب الأهلية فى لبنان إلى معركة جديدة بين إسرائيل والفلسطينيين على أرض لبنان.

يقولون إن الغزو له أهداف محددة، وهى دفع منظمة التحرير بعيدا عن حدود إسرائيل الشمالية، سمع هذا الكلام عمر منصور، أطفأ سيجارته وقال مبتسما، بل سيدخلون بيروت.

فى اليوم الثانى للحرب / السادس من حزيران وصلت القوات الإسرائيلية إلى صيدا، وبدأت حملة قصف جوى مكثف عليها وعلى قرى البنطية والدامور وتبنين وعرنون وقلعة شقيف الإستراتجية، بينما تمكن الجيش السورى من عرقلة تقدم القوات الإسرائيلية المتجهة نحو ظهر البيدر، وقاتلت بشراسة فى البقاع، كما كبدت إسرائيل خسائر فادحة، لكن سقطت قلعة شقيف وتسلمها سعد حداد قائد

الجيش اللبنانى الجنوبى الموالى لإسرائيل، نشعر أن الجيش الإسرائيلى سيصل قريباً إلى مشارف بيروت، أصوات الانفجارات تتزايد، القصف لا يتوقف ليل نهار، تأتينا الأنباء ونحن جالسون فى مكتب الوكالة لا نجرؤ على الخروج، الوحيد الذى ينتقل بين مكتبنا ومكتب التايمز والأسوشيتد برس كان عمر منصور الذى كان ينقل لنا بعض الأخبار الحية غير تلك التى كانت تأتينا تباعاً عبر الهاتف الذى لا يتوقف عن الرنين.

اشتبك السلاح الجوى الإسرائيلى مع سلاح الجو السورى الذى أعاد وتمركز خارج منطقة الشوف، واليوم دخل جيش إسرائيل شرق بيروت، الذى يقطنه أغلبية مسيحية، وطوقت القسم الغربى لبيروت معقل الفدائيين الفلسطينيين، لقد حوصرنا من كل اتجاه، أنا لا أنام، ولا أشعر بطعم للطعام ولا للماء ولا للحياة، الحياة؟ أية حياة، نحن لا نشعر إلا بالموت، وهو سيد الموقف وصاحب السطوة والسلطة فى هذا المكان.

هل سمعت، لقد مات خليل حاوى، انتحر، قتل نفسه رمياً بالرصاص احتجاجاً على الغزو الإسرائيلى للبنان، وقع علينا الخبر كالصاعقة يوم السادس من حزيران

.....

حبيبى اطمئن.. أنا بخير، لست خائفة

صدقنى.. لست خائفة..

نعم.. صدقنى.

الرسالة الثالثة

بيروت: ٢٧ حزيران / يونيو ١٩٨٢

المدينة تحيا فى الظلام، الظلام والخوف والغارات وأصوات القصف، ورائحة الموتى التى تزكم الأنوف، هذه هى بيروت، بل هذه لبنان التى تموت ببطء وبقسوة. منذ عدة أيام أصر عمر منصور أن أخرج معه، قال لى إنه لا يريد أن نذهب إلى صيدا ولا إلى صور، فالطريق إلى هناك تكاد تكون مغلقة، والمراسلون الأمريكان أنفسهم لا يستطيعون الوصول إليها، لكننا نستطيع أن نرى بأعيننا آثار الدمار الذى يسببه القصف الإسرائيلى اليومى على العاصمة، خاصة بعد تمركز أغلب قوات منظمة التحرير بداخلها، عرفات يعلن باستمرار أنه سيدافع عن بيروت، وإسرائيل لا تفرق غاراتها بين مواقع الفلسطينيين والمواقع المدنية، ترددت فى البداية، لكنك تعلم مدى فضولى، خرجت إلى شوارع بيروت، حينما ترى بعينيك يختلف الأمر، وتستشعر المرارة فى حلقك.

شاهدنا عددا من الأقبية التى تفوح منها روائح اللحم المشوى، جثثا ممزقة، رؤوسا مقطوعة، أصابع ملقاة هنا وهناك، بطون مفتوحة، الأعضاء متناثرة فى كل مكان، لا تكاد تترك موضعا لقدم، رائحة الموت فى كل مكان، فى الشوارع الساكنة، فى البنايات المتهدمة، على الساحل الكئيب، وفى عيون المارة القليلين الذين صادفناهم ونحن نسير بالسيارة الجيب المفتوحة التى يقودها عمر منصور، كان ينظر إلىّ بين الحين والآخر ليرى انفعالاتى، وصلنا إلى بناية سكنية بدا وكأن إعصارا اجتاحها، فانحشرت الأجسام بين الركام ولفظت الأجساد أحشاءها، وبقيت الجثث تتحلل تحت أشعة الشمس.

طلبت من عمر العودة، أراد أن يذهب إلى طريق المطار. رفضت، لم أعد أحتمل أن أرى المزيد من الدمار، ولا المزيد من الجثث، ولا المزيد من الدماء، دماء هؤلاء الذين يدفعون الثمن فى حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ويتحملون

بصبر غريب.

عدت إلى المكتب، انتحيت جانباً وانخرطت فى البكاء، تركت لمشاعرى العنان، حتى أفرغ شحنة الحزن المتراكمة بداخلى، وبعد ساعة بدأت أهدأ، سلمنى سليمان ورقة زهرية طواها بعناية دون أن يتحدث معى، كانت إعلاناً عن وقف إطلاق النار، نظرت إلى سليمان مستفسرة، جلس على مقعده بعد أن وضع يده على سماعة الهاتف السوداء وقال:

- لقد أرسلت السعودية وبعض الدول العربية عدة رسائل إلى واشنطن تستحثها للتدخل وممارسة ضغوط على الجيش الإسرائيلى، وعندما لم تحرز هذه الرسائل أية نتائج، «غالبا لأن وزير الخارجية ألكسندر هيج كان يخفيها عن الرئيس الأمريكى» فقد هدد الملك فهد بسحب جميع الاستثمارات السعودية من الولايات المتحدة وأنها ستفرض قيوداً على تصدير البترول للغرب، مما فضح موقف ألكسندر هيج واضطره للاستقالة

قال عمر منصور:

-مؤكد هيج متورط مع اليهود، ولم تكن الحقيقة كاملة أمام ريجان.

قلت:

- حتى لو كانت كاملة، هل تعتقد أنه كان سيُحدث فرقا؟

قال عمر:

-ليس كبيرا، على الأكثر وقف لإطلاق النار مثل هذا.

قال الأستاذ سليمان:

- إسرائيل تتحرك تحت المظلة الأمريكية، وأمريكا لا تسعى إلا خلف مصالحها.

سألتُ:

- هل تعتقد أن وقف إطلاق النار سيطول ؟

رد عمر منصور من موقعه بجوار النافذة المغلقة وهو ينفث دخان

سيجارته فى السقف:

– لا تنتظرى أكثر من يومين.

مرة أخرى عمر منصور، أصبحت أميل إلى تصديقه، له رؤية ثاقبة، وإحساس لا يخيب.

دخل الغرفة إسماعيل فتحى مسرعا:

ـ افتحوا الراديو.

صوت عرفات يأتى قويا بالإصرار على الدفاع عن بيروت وعدم الاستسلام لشروط الهدنة، وتكبيد إسرائيل خسائر فادحة.

سألت:

ـ أى شروط؟

قال إسماعيل:

– لقد طلبت أمريكا خروج كل مقاتلى منظمة التحرير من لبنان.

***

أنا لا أطلعك على الأحداث التى تقرأها يومياً فى جريدة الصباح، أو التى أرسلها فى تقاريرنا للجريدة، إنما أحاول أن أحيطك بما يدور حولى، أن أستبقيك جوارى، لم أعتد أبدا أن أكون وحدى، أو أكون دونك، خطاباتى لك تشعرنى أنك مازلت قريبا منى، أرى عينيك على الصفحة التى أغطيها بالحبر، أراهما. تنظران إلىّ، تبتسمان كعادتهما، لكن يا حبيبى لا أستطيع أن أبادلك الابتسام، أخشى أن أكون قد نسيت كيف أبتسم، كيف أفرح، كيف أعيش، الحياة عندى تحت الحصار، وبين أحضان الموت القريب، القريب جداً، لم أعد أرى فى أحلامى إلا الطائرات، تقصف صور وصيدا والأوزاعى، وبيروت وغيرها، لم أعد أسمع إلا أصوات الطائرات، وهسيس القاذفات، والبيانات الصحفية التى لا تحمل إلا صورة الموت فى كل لبنان، لكنى وبالرغم من كل

هذا لم أنس ولن أنسى أن أحبك،فحبك هو دمى الذى يُحيينى.

أحبك..

أحبك تحت قصف الطائرات، وانفجارات القنابل، والتصريحات المفخخة.

– ادع لى أن أراك قريبا.

الرسالة الرابعة
بيروت: ٢٩ تموز / يوليو ١٩٨٢

أنا لا أدعى الشجاعة، ولا أقول إن ما يحدث حولى لا يؤثر فىّ، بل على العكس، أحيانا أشعر بخوف شديد، خاصة عندما تنقطع الكهرباء، ونستمع الى إطلاق النار المتبادل بين القوات الفلسطينية و الإسرائيلية التى تأتينا وكأنها خلف جدار مكتبنا، وأصوات الغارات الإسرائيلية التى عادت للقصف بعنف وشراسة، كل هذا يصيبنى بالخوف، الخوف الشديد.

إلا أن هذا لم يكن يمنعنى من الموافقة على طلب عمر منصور بالخروج معه عندما يهدأ القصف للمتابعة الحية، وحتى أرى بعينى آثار الغزو ومخلفات الحرب التى تدور رحاها من حولنا

الأستاذ سليمان مرعى يرفض دائما خروجى، يخشى علىّ أن أصاب بأى أذى إذا ما حدث وعاد الضرب أثناء وجودى بالخارج، يؤكد عمر أن هذه الجدران لا تحمينا، وأن الموت يحيطنا حتى ونحن بملابس النوم فوق أسرتنا، فلمَ لا نواجهه بشجاعة، أؤيد عمر منصور، أنا أيضا أريد الخروج، أريد معرفة المزيد، حتى يكون تقريرى الذى أرسله للجريدة نابضا بالحياة.

ذهبنا اليوم إلى بيروت الغربية، دخلنا أحد المستشفيات، المزيد من المعرفة التى تتمنى لو أنك لم تعرفها، الجهل يكون أحيانا أكثر رحمة، لقد استخدمت إسرائيل فى حربها القنابل الفسفورية، شاهدنا ضحاياها بأنفسنا، ومن أمثلة ما شاهدناه ـ وليس كل ما شاهدنا ـ عندما ذهبت بنا طبيبة القسم الداخلى إلى الثلاجة التى يحفظون بها الموتى، توأمان عمرهما خمسة أيام وضعتهما فى البداية فى دلو ماء لتطفئ اللهب، وعندما أخرجتهما كانا ما يزالا يحترقان، وفى اليوم التالى أخرجت الصغيرين لدفنهما، فذعرت عندما اندلع اللهب فى جسديهما مرة أخرى، لم أتمالك نفسى، وسبقتنى دموعى، وانتحيت جانبا وأجهشت بالبكاء.

إن الغطاء الأمريكى لإسرائيل يكفل لها أن تتصدر مراكز القوى دائماً، فبالرغم من الخسائر الفادحة التى كبدتها لها القوات الفلسطينية والسورية أحياناً، إلا أنها ما زالت صاحبة اليد الطولى، وهى التى تحرك اللعبة كيف تشاء، وأسلحتها الجوية والبحرية وسلاح المدرعات، كل هذه الأسلحة تدك بيروت وضواحيها ليل نهار، والدمار شمل كل جزء فى أرض لبنان، وسقطت أعداد غفيرة من الضحايا اللبنانيين المدنيين، وربما كان ذلك مقصوداً لخلق حرب نفسية داخل المجتمع اللبناني، حتى يؤثر على قرارات القيادات الفلسطينية.

أثناء عودتنا كنا نرى لبنان الحقيقية، شوارع أصابها الفزع، العمارات العالية بلا أبواب وبلا نوافذ، ثقوب كبيرة فى الجدران من جراء سقوط القنابل عليها، أكوام الزجاج، الأسلاك، بقايا القتلى ملقاة على الأرصفة، هنا فى لبنان، الموت يتنفس فى كل مكان.

وصلت إلى المكتب منهكة، لا أستطيع أن أتحدث مع أحد، ولا أريد أن أسمع كلاماً من أحد، لكن الأهمية التى اكتسى بها صوت إسماعيل فتحى جذبت انتباهى وهو يقول:

- هل وصلتكم آخر الأخبار.

التفتنا إليه دون أن نجيب، فأكمل:

- لقد اجتمع عرفات مع صائب سلام، واتفقا على النص النهائى للانسحاب، على أن يتم انسحاب المقاتلين الفلسطينيين من بيروت، ويتم توزيعهم على سوريا والأردن والجزائر والكويت والعراق والإمارات واليمن الجنوبى، وعلى أن يتم ذلك تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة.

اخترت أقرب مقعد وجلست عليه، ألقيت جسدى وكأننى أتخلص من عبء ثقيل. لم يعد يشغلنى التقرير اليومى، ولا أهتم بالمنتصر أو المهزوم، كل ما

أتمناه الآن هو أن ينتهى هذا الكابوس، أن يستطيع البسطاء أن يحيوا حياتهم العادية دون نيران إسرائيل، ولا مدافع الفلسطينيين، ولا الصمت العربى الذى يزيدهم بؤساً ويزيد من حجم مأساتهم.

الرسالة الخامسة

بيروت: صباح ١٥ سبتمبر ١٩٨٢

أرجو أن تكون وصلتك رسالتى السابقة، أعلم أن الرسائل لا تصل فى موعدها، لكنى سأرسل لك هذه الرسالة الجديدة على أمل أن تصل إليك أيضا، لا بد أنك سمعت الخبر الذى حدث بالأمس، لقد تم اغتيال الرئيس اللبنانى المنتخب بشير الجميل وخمسة وعشرين شخصاً من طاقمه، لقد كنت فى موقع الحادث بعد أقل من خمس وأربعين دقيقة من حدوثه - بمصاحبة عمر منصور طبعاً - وزميلى إسماعيل فتحى، التقط إسماعيل عدة صور للسيارات المحيطة والجثث التى تفوح منها رائحة الحريق، إلا أن عمر منصور أكد لنا أن هذه الصور لن تنشر، معى نسخة منها سأريك إياها عندما أعود، أنا الآن متجهة مع عمر منصور إلى مخيم شاتيلا، أحد المخيمات الفلسطينية التى تركها المقاتلون تحت رعاية قوات الأمم المتحدة، وعهد الرئيس ريجان بالحفاظ على حياة أهلها، سنقضى اليوم هناك، أنوى عمل عدة تحقيقات صحفية أنشرها تباعاً بعد عودتى،

بالمناسبة، تستطيع أن تعد الساعات لتلقانى، سأكون فى القاهرة عصر يوم ٢٢ سبتمبر الجارى.

اشتقت إليك، أحلم كل ليلة أن ألقى بنفسى فى حضنك وأنام، أريد أن أنام بين ذراعيك، ولا أستيقظ أبداً، إن العالم كئيب، وأفظع مما كنت أتخيل، لا جمال فى العالم إلا بين يديك، فمتى أعود إليك.. يا حبيبي.

٢ـ ما نشيت

- العالم يدين المذابح الإسرائيلية.
- أصابع الغدر تقتل سكان صبرا وشاتيلا.
- إسرائيل تراقب والكتائب تذبح.
- أمريكا تأسف بسبب وقوع الحادث.
- ذبح ٣٠٠٠ مدنى أعزل بالرغم من التعهدات الأمريكية بحماية المدنيين.
- المجزرة غير إنسانية ووصمة عار في جبين البشرية.
- صبرا وشاتيلا تدين صمت العالم.
- يد الإرهاب تغتال الصحفية المصرية مريم قدرى فى مخيم شاتيلا.
- مريم قدري.. جرح الصحافة النازف.
- مريم قدرى.. قصة لا تموت.

صحراء الموتى

حاشيـــة:

عم صباحا أيها الصقر المجنح

عم صباحا

سنة تمضى.. وأخرى سوف تأتى

فمتى يقبل موتى..

قبل أن أصبحَ - مثل الصقر -

صقرا مستباحا !؟

أمل دنقل

*** انقلبت الموازين مع دويّ طبول الحرب**

الفضاء يتسع، والنهار يبسط رداءه على الوجود، لا ليل.. لا ظلام.. لا عتمة، فقط نور، نور أبدى، يملأ الأفق اللا متناهى، لم أعد أشعر بالألم، الوخزات فى الأوردة كأنها موسيقى ناعمة، أرى حامد وغباشى يقفان أمام الباب، أمى تغسل وجهها بدموعها، لكنه يبدو لى باسماً، يبدو كالبدر، تماماً كوجهها عندما تنتهى من صلاة الفجر.

ـ سأعود قريباً، (عمر الشقى بقى)

لم تعد مريم، لم تفِ بوعدها، تربص بها الموت فى أرض غريبة، تمتد الصحراء أمام عينىّ إلى ما لا نهاية، صحراء بلا رمال، صحراء من الجثث، الموتى يرفعون أكفهم نحوى، تتناهشنى الأصابع الطويلة وتأكلنى العيون الجاحظة، وأنا أغوص، أغوص فى الدماء، أغوص وسط الموتى.

* قصف مدفعي على بغداد ٢٤ ساعة

تهرب الصحراء، يختفى الموتى، يعود النور، يعود اللون الأبيض ليفرد ملاءته على الوجود، لم تكن فوزية وحدها، العديد من المرضات، لمحت سوسن، بدا صوت نحيبها صادقاً، يرفعوننى لتغيير الملاءة البيضاء التى اصطبغت باللون الأحمر، الدماء تقطر على الأرض، الأطباء يعلنون عجزهم.

- غباشى.. لا تتأخر.

يسحبون المحاليل وأكياس الدم برفق، ترقص دمعة فى عين الدكتور باسيلى ويحاول جاهداً ألا يجعلها تبوح بحزنه، لماذا يحبنى هؤلاء الناس؟

- صباح الخير.. أنا مريم.

- غباشى.. أنا ألد.

لا بد أن هؤلاء الملائكة، لا بد أن هذا النور هو الطريق الأخير الذى لا توجد بعده عودة، هل هى اللحظة التى انتظرتها طويلاً.

*** فتح: إسرائيل لن تحصل علي الأمن مجاناً**

- لقد اعتقلوا صلاح نصار.

- جميلة لم تمت.

- هذا الرجل لا يصنع السلام.

الليل يعود، الظلام يكتنف كل شيء، آلام رهيبة تسرى فى كل جسدى، ماذا يحدث لى، لماذا يعاودنى الألم، هذا أكثر مما أحتمل.

*** الجيش الأمريكي يتولى السلطة في بغداد رسمياً**

*** أخذ التتار بغداد، وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة، وانقضت دولة بنى العباس منها.**

النور يعود، يفج فى المكان مرة أخرى، لا تتعب منه عيناى، ترضاه وتفرح به، صوت عبد الباسط من بعيد:

- وشروه بثمن بخس دراهم معدودة.

النور يحيطنى بغلالة فضية رائعة، الألم يخفت تدريجياً، والفضاء يتسع، يتسع إلى ما لا نهاية، يتسع بلا حدود، الضوء سيد الوجود.

- ادع لى أن أراك قريباً.

- هل أحببت، أنا متأكدة أنك أحببت.

- كلهم لصوص.

- أنا خادم.. مجرد خادم للص الكبير.

- أحدثك يا أستاذ عن ملاكى الجميل، عن جميلة.

صوت عبد الباسط:

- وكانوا فيه من الزاهدين.

- سأعود قريباً.

*** صوت الأذان توقف في بغداد.**

الصحراء ترقص أمامى.

الليل تملؤه الشموس، ملايين الشموس الصغيرة التى تضئ وتنطفئ، تموت وتولد ينهض الموتى يحملون آلاتهم الموسيقية.

تدق الموسيقى فى أذنى، فتسعدنى كثيراً.

دمع أمى يحرق خدى.

صرخاتها تمزق كبدى.. وكبد الليل

بكاء أبى الصامت يشيع فى المكان الشجن

تمر أمامى كل الوجوه:

أمى.. أبى.. حامد.. ضابط الأمن.. غباشى.. سوسن.. صلاح نصار.. عدلى.. فوزية.. سماح.. باسيلى.. الأساتذة، الندوات، الشوارع.. زهرة البستان.. أمن الدولة..

حتى جميلة، أراها تنظر إلىّ من بعيد.. وأخيراً مريم.. مريم تأتى إلىّ فى طرحتها التُل كضوء النهار، كيوم فارقتها منذ أكثر من عشرين عاماً، تقفز السعادة من عينىّ، آخذها فى حضنى وأتمدد.... أتمدد بطول الصحراء وعرضها، أبتسم لأصدقائى الموتى، أتلفت يميناً ويسارا، أنظر إلى عينىّ مريم، ينبثق النهار، هل هذا هو الموت يا مريم ؟ إن كان هو فدعينى أغمض عينىّ فلا أرى سواك، ولا حتى الموت الذى لم أعد أنتظره، ولا ينتظرنى.

الأقصر
مارس ٢٠٠٦
أغسطس ٢٠٠٩

أحدث إصدارات روايات الهلال عام ٢٠١٥

اسم الرواية	المؤلف	الشهر	السنة	رقم العدد
مثل ترنيمة	بيرومبا دافام سرى دهاران	يناير	٢٠١٥	٧٩١
لا تنس الهدهد	فؤاد حجازى	فبراير	٢٠١٥	٧٩٢
البومة العمياء	صادق هدايت	مارس	٢٠١٥	٧٩٣
امرأة الريح	صفاء عبدالمنعم	أبريل	٢٠١٥	٧٩٤
إني وضعتها أنثى	سعيدة تاقى	مايو	٢٠١٥	٧٩٥
سكر مر	محمود عوض عبدالعال	يونيو	٢٠١٥	٧٩٦
فى عشق جيفارا	نا ميناندس	يوليو	٢٠١٥	٧٩٧
العربة الرمادية	بشرى أبو شرار	أغسطس	٢٠١٥	٧٩٨
رمضان المسيحى	عادل سعد	سبتمبر	٢٠١٥	٧٩٩
سرابيوم	محمود عرفات	أكتوبر	٢٠١٥	٨٠٠
بشرنسيهم الله	ألبير قصيرى	نوفمبر	٢٠١٥	٨٠١
حوّادم	بهيجة مصر إدلبى	ديسمبر	٢٠١٥	٨٠٢

سلسلة كتاب الهلال تقدم:

منعطف ما بعد الحداثة

الكاتب : إيهاب حسن

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

يصدر ٥ فبراير ٢٠١٦

سلسلة روايات الهلال تقدم:

العجوزان

جار النبي الحلو

تصدر ١٥ فبراير ٢٠١٦

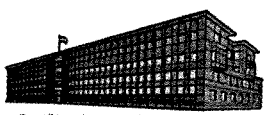

الطباعة: مؤسسة دار الهلال - القاهرة

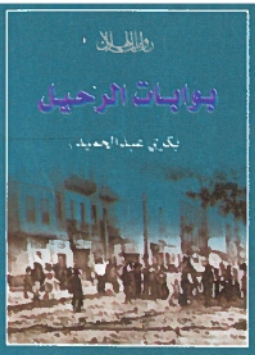

«أتمدد بحلول الصحراء وعرضها. أبتسم لأصدقائي الموتى. أتلفت يمينا ويسارا. أنظر إلى عيني مريم. ينبثق النهار. هل هذا هو الموت يا مريم؟ إن كان هو فدعيني أغمض عينيّ فلا أرى سوالك. ولا حتى الموت الذي لم أعد أنتظره. ولا ينتظرني».

من سرير المرض/الموت بالمستشفى. وقبل أن يعبر البوابة إلى العالم الآخر. يرصد بطل الرواية خريطة الخراب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في مصر والعالم العربي. يتناول جوانب من تراجيديا كان شاهدا عليها منذ منتصف السبعينيات. مرورا بالاجتياح الإسرائيلي لبيروت والذي خطف حبيبته. وصولا إلى الاحتلال الأمريكي للعراق.

لا حيلة لشاهد عاجز إلا أن يحكي. وقد حكى. فجاءت «بوابات الرحيل» مرثية بعمق الجرح.

بكري عبد الحميد:

كاتب وشاعر مصري: له عدة دواوين شعرية ومسرحيات منها «دم السواقي». «نصب تذكاري». «رقصات المرافئ الأخرى». وقدم عددا منها في المسرح الجامعي ومسارح وزارة الثقافة في مصر. وله أيضا رواية للأطفال عنوانها «إخناتون فرعون التوحيد».

المؤلف